جلفر في
جزيرة الجياد الناطقة

كامل كيلاني



جَلِفَرْ في جَزيرة الجيَاد النّاطِقة

جَلِفَرْ في جَزيرة الجيَاد النّاطِقة

الرحلة الرابعة

تأليف
كامل كيلاني

هنــداوي

جَلِفَرْ في جَزيرة الجيَاد النّاطِقة

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٧٦١٣
تدمك: ٨ ٠٥٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

المحتويات

الفصل الأول

(١) بعدَ خمسةِ أشهرٍ

قَضيتُ أَشْهُرًا خمسةً مع زَوْجتِي وولديَّ. وما أحسبُني أُخْطِئُ الصَّوابَ إذا قَرَّرْتُ أنني كنتُ خِلالَ هذه الْمُدَّةِ سعيدًا. وليتَني فَطِنْتُ إلى هذه السَّعادةِ، وقدَّرْتُ تلكَ الْحَياةَ الرَّغْدَةَ الْوادِعَةَ التي نَعِمْتُ بها حِينًا مِنَ الدَّهْرِ.

ولكنّ الشَّقاءَ أَبَى عليَّ إلَّا أنْ أَكفُرَ بهذه النِّعْمَةِ، وأُوثِرَ الْمُغامرةَ في الْأسفارِ، وأَقبلَ رِياسَةَ سفينةٍ تِجاريَّةٍ كبيرةٍ، اختارَني أَصحابُها رُبَّانًا لها، فأعددتُ العُدَّةَ للسَّفرِ، وفرِحتُ بهذا الْمَنْصِبِ الْجديدِ الذي أَراحَنِي من أَعباء مِهْنَتِي الْأُولَى، وهي الجراحةُ، فاستَدعَيتُ إلى سفينتِي جَرَّاحًا ماهرًا اسْمُهُ «روبرت»، وانْتَوَيْتُ مُعَاوَنَتَهُ إذا اضْطَرَّتْنِي الأحوالُ إلى ذلك.

ثم أَقْلَعَتِ السفينةُ من ميناء «بُورتْسموث» في الْيَوْمِ السابِع من سبتمبر عام ١٧١٠م. ولما جاء اليومُ الرابِعَ عَشَرَ من هذا الشهر الْتَقَيْنا بالرُّبَّانِ «بروك»، وكان — حينئذٍ — رُبَّانًا للسفينةِ «بِرِسْتول»، وقد جَعل قِبْلَتَهُ خليجَ «كمبيش»؛ حيثُ يَقْطَعُ الْخُشُبَ ويعودُ بِها إلى بلادِه.

وسارتِ السَّفينتانِ جَنْبًا إلى جَنبٍ؛ حتى إذا جاء الْيومُ السَّادِسَ عَشَرَ من الشهرِ هَبَّتْ عاصفةٌ شديدةٌ، انتهتْ بالفُرْقةِ بين السَّفينتَيْنِ؛ فلم يُكتبْ لنا اللِّقاءُ بعدَ ذلك اليومِ.

وقد علمتُ — بعد أَن عُدْتُ إلى بلدِي — أَن السفينةَ «بِرِسْتول» هذه قد غرِقتْ، وغَرِقَ رُبَّانُها وبَحَّارُوها، ولم يَنْجُ منهم إلَّا بَحَّارٌ صغيرٌ هَيَّأَ له الْقَدَرُ أَسبابَ النَّجاةِ بأُعْجُوبةٍ.

وَكان هذا الرُّبَّانُ مثالًا من أَمثلةِ الظَّرْفِ والْبراعةِ، وقد شهد له كلُّ من عَرَفه بالمهارةِ في قِيادةِ السُّفُنِ. ولكنه كان — على ذلك — شَدِيدَ العِنادِ، لا يقبَلُ الْخُضُوعَ لرأيِ غيرِه،

بالغًا ما بَلَغَ من الرَّجاحَةِ والْأَصالةِ. وأَغلَبُ الظَّنِّ أَن هذا الْعَيْبَ هو الذي أَسْلَمَه إلى حَتْفِه، وكان سببَ هلاكِه وهَلاكِ رِفاقِه.

ولو أَنه أَقْلَعَ عن عِنادِه، وترك الِاسْتِبدادَ برأيِه، وأَخذ بنصيحَتي، لكُتِبَتْ له الْعَوْدةُ إلى بلادِه سالِمًا، فلقِيَ أُسْرَتَه كما لقِيتُها، ولكنْ هكذا كانَ!

(٢) مُؤامَرَةُ الْهَمَجِ

وأَراد الله أن تُصابَ جَمهرةٌ من رِفاقِي بالمَرضِ — في أَثناء الرِّحلةِ — وأَن يُسْلِمَهُمُ المرضُ إلى الهلاكِ. فلم أَرَ بُدًّا من الِاستِعانةِ بجماعةٍ منَ الْهَمَجِ؛ لِيَحُلُّوا مَحَلَّ رفاقِي في السفينةِ، وكان سَوادُهم من صَيّادِي الثِّيرانِ الْوَحْشِيّةِ.



وقد ندِمتُ أَشدَّ النَّدمِ لاخْتيارِ هؤلاء الْخَوَنةِ؛ فقد تكشَّفَتْ لي مَساوِئُهم، وتَبيَّنَ لي خُبْثُ نُفوسهم، ولُؤمُ طَبائِعِهِمْ.

وبعدَ قليلٍ من الزَّمنِ أَمرني هؤلاء الْهَمَجُ بالرُّسُوِّ في بلدٍ قريبٍ. وكان معي بالسفينةِ خمسونَ رجلًا، وكنتُ مُوَزَّعَ الفِكْرِ بينَ ثلاثٍ: الاتِّجارِ مع أَهْلِ «إفريقيةَ»، وكَشْفِ الْأَصقاعِ المجهولةِ جُهْدَ طاقَتِي، وقِيادةِ هذه السفينةِ. فانْتهز الْأَوْغَادُ الفرصةَ؛ فأفسدُوا عليّ بقيةَ البَحّارِينَ، ثم ائْتَمَرُوا بي، وأَبرَمُوا خُطَّتَهُمُ الخبيثَةَ للقبضِ عليّ، والِاسْتيلاءِ على سفينَتِي.

(٣) تنفيذُ المؤامرةِ

وذا صباحٍ اقْتَحَمُوا غُرفتِي، وانقضُّوا عليَّ، وشدُّوا وَثاقِي، وتوعَّدُوني بالهلاكِ، وأَقسمُوا لَيَقْذِفُنَّ بي إلى البحرِ، إذا هَمَمْتُ بمقاومَتِهِم، أو فكَّرْتُ في الدِّفاع عن نفسِي.

فقلتُ لهم وقد رأَيتُ أَن كلَّ مقاومةٍ لن تُثْمِرَ إلَّا شَرًّا: «لقد أَصبحتُ — منذُ اليومِ — سجينَكم. وإني أُقسِمُ لكم على الخضوعِ، ولن أَعْصِيَ لكم أَمرًا.»

فاطْمأَنُّوا إليَّ، ووثِقُوا بقسَمِي؛ فَحَلُّوا وَثاقي، واكْتَفَوْا بربْطِي إلى عمودِ سَرِيرِي الخشبيِّ. ووكَّلُوا أَحدَ الحُرّاسِ بمُراقبَتِي وحِراسَتِي، وأَمرُوهُ بشَجِّ رأْسِي وتحطِيمِه إذا حاولتُ الفَكاكَ منَ الْأَسْرِ، وأَوْصَوْهُ بتقديمِ الطَّعامِ والشرابِ لي، ثم تَوَلَّوْا قِيادةَ السفينةِ إلى حيثُ يشاءُونَ.

وكان أَكبرَ هَمِّهم أَنْ يتَّخِذُوا من هذه السفينةِ أَداةً لِلُّصُوصِيَّةِ، وسَلْبِ السفنِ التِّجاريةِ كلَّ ما فيها. فقرَّ رأْيُهم على بَيْعِ ما في سفينتي — من البضائِع — في أَقربِ مدينةٍ يَحُلُّون بها؛ فإذا تمَّ لهم ذلك، ذهبُوا إلى جزيرةِ «مَدَغَشْقَرَ»؛ فأَخذُوا منها جمهرةً من الأَهْلِينَ، ليعاوِنُوهم في قِيادةِ السفينةِ. وكانوا مُضْطَرِّينَ إلى ذلك؛ لأن المرضَ قد أَهلك كثيرًا من البحَّارةِ، بعدَ أَن تمَّ لهمُ اعْتقالِي.

وقد سارتِ السفينةُ أَسابيعَ عدةً، وظلُّوا يَبيعون ما لديهم منَ البضائعِ، ويَسيرُون في مجاهِلَ — من البحر — لا عَهْدَ لي بها؛ لأنني كنتُ أَجهلُ — بعدَ أَن أَسَرُوني — خُطَّةَ السيرِ التي اخْتارُوها. وظَلَلْتُ أَرتقِبُ حينِي بينَ لحظةٍ وأُخرى؛ لأنهم هَدَّدُوني بالقتلِ أكثرَ من مرَّةٍ، ولم يكنْ يمنعُهم عن تنفيذِ وَعِيدِهم أيُّ مانع.

(٤) خاتِمَةُ الْمُؤَامَرةَ

وفي اليومِ التاسِعِ من مايو/أيار عام ١٧١١م دخل غُرفَتِي أَحدُ المؤتَمِرِينَ واسْمُه «جاك» — وقال لي: «لقد أَمَرنِي رُبَّانُ السفينةِ أَن أُنْزِلَك إلى الشَّاطِئِ.»



فسألتُه عن السببِ فلم يُجِبْني بشيء. وحاولتُ عبثًا أَن أَعْطِفَه عليّ، وظَلِلْتُ أَضْرَعُ إليه مرةً، وأَحْتَجُّ عليه مرةً أُخرى؛ فلم تُجِدْنِي الضَّراعةُ، ولم يَنفعْنِي الِاحْتِجاجُ. فسألتُه عنِ اسْمِ الرُّبَّانِ الجديدِ، فكان جوابَهُ الصَّمْتُ.

على أن المؤتمرِينَ قد أَذِنُوا لي أَنْ أرتدِيَ أفخرَ ثيابِي، وأَنْ أحمِلَ معي كلَّ ما أحتاجُ إليه من مَتاعٍ.

وتلطَّفُوا بي؛ فلم يفتِّشوا عَمَّا في جُيُوبِي، وكان بها قليلٌ من النقودِ، وبعضُ الأدواتِ الصغيرةِ الضَّرُوريةِ.

ثم حملونِي إلى زَوْرَقٍ صغيرٍ، وسارُوا به نحوَ مِيلٍ، حتى وصلْنا إلَى الشاطئِ، فسألْتُهم: «أيُّ البلادِ هذه؟»

فأقسَمُوا إنهم يَجْهَلُونها، ولا يعرِفون عنها أكثرَ مِمَّا أعرِفُ، وأَخبرونِي أن الرُّبانَ قد أَصدر قرارَه — منذُ أيامٍ — بالتَّخَلُّصِ منِّي في أولِ فرصةٍ، بعد أن تمَّ له بَيْعُ كلِّ ما في السفينةِ من بضائعَ.

(٥) فِي أَرْضٍ مَجْهُولَةٍ

ثم تركونِي واقفًا على الشاطئِ، ونصَحُوا لي أنْ أُعَجِّلَ بالذَّهابِ بعيدًا عنه؛ حتى لا يُغْرِقَنِيَ الْمَدُّ — وهو وَشيكٌ — ثم ودَّعوني وعادُوا بِزَوْرَقِهِم إلى السفينةِ مسرعين، ينهَبُون البحرَ نَهْبًا.

ولم أجِدْ مَناصًا في ذلك الموقِفِ الحرِجِ منَ الْإسراعِ — كما أَوْصَوْنِي — إلى تلك الأرضِ المجهولةِ التي لا أعلمُ عنها شيئًا.

وما زِلْتُ سائرًا حتى تَخطَّيتُ رِمالَ الشاطئِ كُلَّها، وحَلَلْتُ بالْأرضِ الصُّلْبةِ؛ فجلستُ أستريحُ من عَناء السَّيرِ، وأفكِّرُ فيما أنا قادمٌ عليه من أخْطارٍ وأهوالٍ.

وأكْسَبَتْنِي الرَّاحةُ شيئًا من القوةِ؛ فتقدَّمتُ سائِرًا في تلك المجاهلِ، وقد تملَّك نفسي اليأسُ؛ فاعْتزمتُ أن أُسْلِمَ نفسِي إلى أوّلِ من يلْقانِي في الطريقِ، ورأيتُ أن أرْشُوَ من يقابلُني مِنَ الأَهْلِينَ ببعضِ الخواتِم والطُّرَفِ الصغيرةِ التي لا يخلُو منها جَيْبُ سائِحٍ، وكانت جُيُوبي مَلْأَى بأمثالِ هذه الهدايا والتُّحَف.

ورأيتُ جَمهرةً من الأشجارِ مُبَعْثَرةً في أثناء الطريقِ على غيرِ ترتيبٍ، كأنما أخرجْتها الطبيعةُ، ولم تُنَظِّمْها يدُ إنسانٍ، ولمَّا اجْتَزْتُها، اسْتَقْبَلَتْني مَراعٍ فسيحةٌ، وحُقولٌ واسعةٌ مِنَ الشُّوفانِ؛ فمشَيْتُ خِلالَها منتبهًا حَذِرًا خَشْيَةَ أن يفاجِئَني سَهْمٌ من سِهامِ الأهلينَ؛ فيقضِيَ على حياتِي.

(٦) آثارُ السُّكَّانِ

ورأيتُ أمامي سبيلًا مَطْرُوقةً، فيها آثارُ أقدامٍ إنسانيةٍ، وآثارُ حَوافرِ البقرِ والخيلِ. ورأيتُ دَوابَّ جاثِماتٍ على شجرةٍ، وبدا لي منها وُجوهٌ غريبةٌ مُشَوَّهَةٌ؛ فدَبَّ دبيبُ الخوفِ إلى قلبي، وأسرعتُ إلى كَوْمَةٍ من العلَفِ، فاسْتَخْفَيْتُ في أثنائِها، وظَلَلْتُ أُنْعِمُ النظرَ فيما أرى أمامي من تلك الوُجوهِ المشوَّهةِ. وقد هالَني ما رأيتُه من الشعرِ الطويلِ الْمُتَدَلِّي على وُجوهِها ورِقابِها، وأَبْصَرْتُ لبعضِها شَعْرًا جَعْدًا، وللبعضِ الآخَرِ شَعْرًا سَبْطًا مُرْسَلًا.

وزاد عَجَبِي منها حينَ رَأَيتُ صُدورَها وظُهورَها وأرْجُلَها مُغَطَّاةً بشعرٍ كثيفٍ، وقد نَبَتَتِ اللِّحَى — في أذقانِها — فكانتْ في وُجُوهِها أشبَهَ باللِّحَى التي تَنبُتُ في أَذْقانِ الْجِداء.

أما بقيةُ أَجْسادِها العاريةِ، فلَيْسَ فيها شَعْرٌ؛ وَأَلْوانُها تَمِيلُ إلى السُّمْرَةِ، وقد تَدَلَّتْ على ظُهُورِها خُصَلٌ طويلةٌ من الشَّعرِ، وليس لها ذُيولٌ في مُؤَخِّراتِها.

ورأيتُ هذا الحيوانَ يجلسُ — كما يَجْلِسُ النَّاسُ — ويقفُ على رِجْلَيْهِ كما نَقِفُ، ويتسلَّقُ الأشجارَ في سرعةٍ عجيبةٍ، ويقفِزُ إليها في مِثْلِ خِفَّةِ السِّنْجابِ، وله مَخالِبُ طويلةٌ مُلْتَوِيَةٌ في أرْجُلِهِ الخلفية والأمامية.

وإناثُ هذا الحيوانِ أضألُ جسمًا من ذُكُورِه، ولها شعرٌ طويلٌ مُرْسَلٌ ناعمٌ، وليس في وجُوهِها شعرٌ، ولا يَنْبُتُ في أَجسادِها منه إلَّا خُصَلٌ قليلةٌ. وأَثْداؤُها مُدَلَّاةٌ بين أرجِلها الأماميةِ، وربُمَّا مَسَّتْ ثُدِيُّها الأرضَ، في أَثناء سيرِها. ورأَيتُ لبعضِها شَعرًا أَسمرَ، وللبعضِ الآخرِ شعرًا أَحمَر، أَوْ أَسودَ، أَو أَصفَرَ.

وجُمَّاعُ القولِ أَنّ هذا الحيوانَ قد تمثّلَ لي في أَبْشَعِ صُورةٍ رأَتْها عَيْنايَ، وإنني لم أَشعُرْ — طُولَ حياتي — لأيِّ جنسٍ من أَجناسِ الحيوانِ، بِمِثْلِ ما شَعرتُ به من الكراهِيَةِ والْمَقْتِ لهذا الحيوانِ الُمخيف.

(٧) مَخْلُوقاتٌ بَشِعَةٌ

ورأَيتُني قد ضِقْتُ ذَرْعًا بهذا المخْلوقِ التَّعِسِ، فلم أُطِقِ النَّظَرَ إليه؛ فخرجْتُ من مَخْبَئِي نافِرًا مُشْمَئِزًّا مُتَقَزِّزَ النفْسِ، واسْتأنفتُ السيرَ في طريقي، آمِلًا أَن أَهتدِيَ إلى كُوخِ بعضِ السُّكَّانِ. ولكني لم أَلْبَثْ أَنْ فُوجِئْتُ بَعْدَ خُطُواتٍ يَسِيرَةٍ بِحَيَوانٍ من ذلك الجِنْسِ البَشِعِ الذي وصفتُه. فما أَبْصَرَني حتى تَملَّكَتْه الدَّهْشَةُ، وبَدَتْ على أَسارِيرِه أَماراتُ الْوَحْشِيَّةِ؛ فكَشَّرَ عن أَنْيابِه، فَكأَنَّما لم يَرَ طَوالَ حياتِه حيوانًا في مثلِ صورتي. فدَنَا مِنِّي، ورفع إحدى رِجليْه الأماميّتيْنِ، وما أَدري لذلك سببًا؛ فلم أَستطِعْ أَن أَتبيّنَ مَقْصِدَه من هذه الحركةِ: أهو التَّرْحِيبُ أَمِ الْغَدْرُ!



فاسْتَلَلْتُ سَيْفِي، وضربتُ بصَفْحَتِهِ ذلك الحيوانَ، وقد آثَرْتُ أَن أَضرِبَه بِمتْنِ السَّيْفِ — دُونَ حَدِّه — لأنني لم أَقصِدْ إلى قتلهِ أَو جَرْحِه، حتى لا أُسِيءَ إلى أَصحابِ هذا الحيوانِ.

ولما رأى ما فعلتُ فَرَّ هاربًا، وانْطَلَق يُصَوِّتُ، ويُرْسِلُ صَرَخاتٍ عاليةً مُدَوِّيَةً في الفضاءِ؛ فأقبلَ — لنجدتِه — أربَعون دابَّةً في مثْلِ شكلِه وهيْئَته، واندفعتْ صَوْبِي، وهي تَصيحُ مُكَشِّرَةً عن أنْيابِها، مُنذِرةً مُتَوَعِّدَةً. وعلا صَخَبُها؛ فانطلقتُ أَعْدُو حتى بلغتُ شجرةً، فاعْتمدتُ على جِذْعِها، ولَوَّحْتُ بسْيفي أمامَ هذه الجمهرةِ الشَّرِسَةِ؛ فقفز كثيرٌ منها على أغصانِ الشجرةِ، وأمْطرَني وابِلًا من أقْذارِه. ورأيتُ الخَطرَ يشتدُّ؛ فتشبَّثْتُ بالشجرةِ — بكلِّ قوَّتي — حتى آمنَ شرَّ هذا الحيوانِ الشَّرِسِ وأَتَّقِيَ أَذاهُ، ولكنني كِدْتُ أختنِقُ من رائحةِ أقذارِه الكريهةِ التي غمرنِي بها.

(٨) صَهِيلُ الجَوادَيْن

وإنِّي لَأُعانِي — من هذا المأزِق الحَرِجِ — ما أُعانِي، إذْ تَنَسَّمْتُ الفرجَ بعد الضِّيق، حين رَأيتُ أَسْرابَ هذه الدَّوابِّ الكريهةِ تَفِرُّ هاربَةً، وتَعْدُو مُنْطَلِقةً في سُرْعَةِ الخائِفِ المذعورِ. فشجعني ما رأَيتُ عَلى تَرْكِ الشجرةِ، واسْتأْنَفْتُ سَيْرِي، وأَنا شديدُ العَجَبِ ممَّا حدث،

وظَلَلْتُ أُحِدِّثُ نفسي، مدهوشًا: «تُرى ما الذي أخاف الدَّوابَّ وفَزَّعها، فانْطَلَقَتْ في عَدْوِها، لا تَلْوِي على شَيْء؟»

ونظرتُ — يَمْنَةً ويَسْرةً — لعلي أتعرَّفُ السببَ؛ فرأيتُ جَوادًا مُقْبِلًا عَلَيّ، يَمْشِي مُتَبَخْتِرًا — في وَقارٍ عَجِيبٍ — وَسطَ حَقلٍ قريب. وكان مَقْدَمُ هذا الجوادِ النبيلِ سببًا في إنقاذي من الورطةِ، وفَكاكِي من الحِصارِ.

ثم دَنا مني هذا الجوادُ، ووقف أمامي، ثم تراجع إلى الوراء، ثم أجال بصرَه فِيّ، وظلَّ يُنعِمُ النظرَ، ويُجِيلُ لِحاظَهُ في كل ناحيةٍ، ويدُورُ حَوْلِي مراتٍ عدةً، وقد بَدَتْ عليه أماراتُ الدهشةِ والعَجَبِ!

وبدا لي أنْ أستأنِفَ السَّيْرَ في طريقي، ولكنه اعترضني، ووقف أمامي ينظرُ إليَّ بعينٍ وادِعَةٍ مُؤْنِسَةٍ، ولم يُبْدِ شيئًا من الشَّراسَةِ والعُنْفِ، وظَلَّ كِلانا يُنْعِمُ النظرَ في صاحِبه وقتًا غيرَ قصيرٍ. ثم عَنَّ لي أنْ أُرَبِّتَ رَقَبَتَهُ مُتَوَدِّدًا، كما يُرَبِّتُ السَّائِسُ الجوادَ الغريبَ لِيُؤْنِسَهُ ويُلاطِفَهُ.

وكأنما أغضبَتْه مني هذه الجُرْأةُ، ورأى في تَحِيَّتِي تَوَقُّحًا عليه فبدتْ على وجهه دَلائِلُ الاحتقارِ والازْدِراءِ، وهَزَّ رأسَه، وقَطَبَ حاجِبَيْه، وشَمَخَ بأنفِه، ورفع إحدى رِجْلَيْه الأمامّيتَيْنِ — في عِزَّة واسْتكبارٍ — مُشِيرًا إليّ أن أرفعَ يدي. ثم صَهِل الجوادُ ثلاثَ مّراتٍ أو أربعًا، وحَمْحَمَ. فدَهِشْتُ من صهيلِه وحَمْحَمَتِه، فقد سمعتُ في جَرْسِهِ ما لم أسمعْهُ من جَوادٍ قبله، وخُيِّلَ إليَّ أنه يتكلمُ لغةً بعينها، فقد سمعتُ من اخْتلافِ نَبَراتِ صَوْتِه، وتَنَوُّعِ لَفْظِهِ، وتَبايُنِ جَرْسِهِ، ما أشْعَرنِي أنها تَنْطَوِي على مَعانٍ شَتَّى.



ولم يَنْتَهِ من حَمْحَمَتِهِ وصَهِيلِه، حتى أقبلَ عليه جَوادٌ ثانٍ، وظلَّ يتهادَى في مِشْيَتِه، حتى داناهُ؛ فلمَسَ بحافرِه الأماميةِ حافِرَ صاحبِه، ثم أجابه عن صَهيلِه بصَهِيلٍ آخرَ. وَظَلَّ كِلاهُما يُجِيبُ صاحبَه مُتَفَنِّنًا في صهيلِه بَنَبراتٍ شتَّى، ومقاطعَ مُتَبايِنةٍ (مُخْتَلِفةٍ)، تُشعِرُ سامِعَها أنَّها ألفاظٌ مستقلةٌ، تؤدِّي معانيَ بِأَعْيانِها.

ثم سارَ الْجَوادانِ بِضْعَ خُطُواتٍ، وهما يُحَمْحِمانِ ويَصْهَلانِ؛ فَكَأَنَّما يتشاوران في أمري. وما زالا يمشِيانِ — جيئَةً وذَهابًا — في جَلالٍ ووَقارٍ خَيَّلا إليَّ أن رجُلينِ يتشاوران في بَعْضِ الشُّئُونِ الخطيرة. وكانا لا يكُفَّان عن النظر إليّ — في أَثْناء حِوارِهما — كأنما خَشِيا أن أُفْلِتَ منهما!

(٩) سادَةُ الجزيرةِ

واشتدَّتْ دَهْشَتِي وعَجَبِي مما رأيتُ، وقلتُ في نفسي: إذا كانتْ جِيادُ هذا البلَدِ على مِثْلِ هذه الرَّجاحَةِ والوَقارِ، فكيف بِسادَتِه من الأَناسِيِّ؟ لا رَيبَ أنهم أرجحُ الناسِ عقلًا، وأوفرُهم ذكاءً، وأعظمُهم أصالةَ رأيٍ، وصِدْقَ نظَرٍ!

وتملَّكَتْ نفسي هذه العقيدةُ، فاعْتزمتُ التَّجْوالَ في هذه البلادِ، لعلّي أهتدِي إلى قريةٍ أو منزلٍ، أو أُوَفَّقُ إلى لِقاء أحدٍ من الأهلينَ. وما هَمَمْتُ بتركِ الجوادينِ حتى قَطَعا حَدِيثَهما، واتَّجَه إلَيَّ أحدُهما — وكان أزرقَ تُرَقِّشُه نُقَطٌ بِيضٌ — فظلَّ يَصْهَلُ خَلْفِي صهيلًا مُتتابعًا، واضِحَ النَّبَراتِ، بَيِّنَ المقاطِعِ، يُشْعِرُ سامِعَه أن في طَيَّاتِه مَعانِيَ تكادُ ألفاظُها تُفْصِحُ عن مَدْلُولِها.

فعُدتُ إليه حتى دانَيْتُه، وبذلتُ جهديّ في إخفاءِ ارْتِباكي واضْطِرابِي، وكانا قد بلغا بِي كلَّ مبلَغٍ، فقد كنتُ حائرًا لا أدري مصيرَ أمري. وفي وُسْعِ القارئ أن يتصوَّرَ حرَجَ هذا المركزِ الدقيقِ وخُطورتَه.

وتكنَّفَني هذان الجوادانِ، وراحا يُجِيلانِ لِحاظَهما، ويُطيلانِ التَّأَمُّلَ في وَجْهِي ويديَّ، زمنًا يسيرًا.

ثُمَّ دَنا مني أحدُ الجوادَينِ — وهو الأَزْرَقُ المُرَقَّشُ — فرفع رِجْلَيْهِ الأماميّتَيْنِ إلى قُبَّعَتي، وعَبِثَ بها؛ فنزعتُها من فَوْرِي. ودَهِش الجوادُ الآخَرُ — وهو الجوادُ الأَحْمَرُ — حين أمسك بذَيْلِ ثوبِي، فرآه غيرَ مُلْتَصِقٍ بجَسَدِي؛ فَلَبِثا ينظرُ أحدهُما إلى الآخَرِ، وقد بَدَتْ عليهما أماراتُ الحيْرةِ والعَجَبِ.

ثم وضع ذلك الجوادُ رِجْلَه على يدِي اليُمْنَى، وبدا على سِيماه أنه مُعْجَبٌ بلطفِها، ورقةِ ملمسِها، وصَفاء لونِها. ثم ضَغَطَ عليها بين سُنْبُكَيْه وشِكالِه؛ فاشتدَّ أَلَمِي لذلك، وصَرَخْتُ بأعلَى صَوْتي مُوَلْوِلًا. فعطَف عليّ الجوادان، ورقَّ قلباهما لي، وظهرتْ على ملامِحِهما دلائلُ الرحمةِ لما أصابني.

ثم أجالا لِحاظَهُما في حذائي وجَوْربي، وظَلَّا يَلْمسانِ الحذاءَ مرةً، والجَوْرَبَ مرةً. ثم دار بينهما حِوارٌ طويلٌ، هو أقربُ إلى حِوارِ فيلَسُوفَيْنِ يُريدان أن يتعرَّفا ظاهرةً غريبةً، لا عهدَ لهما برؤيتِها من قبلُ.

شَدَّ ما عجبتُ من رزَانَةِ الجوادين، واتِّزانِ حَرَكاتِهما، ولم أدْرِ كيف أُعَلِّلُ ما بدا لي منهما من تَعَقُّلٍ وحِكْمَةٍ.

وَخَطَر بِبالِي أنهما — فيما أُرَجِّحُ — ساحِرانِ، وأنهما قد أُوتِيا القدرةَ على الحَوْلَةِ (التَّحَوُّلِ) — بما عرَفاه من فُنونِ السِّحْرِ وأساليبِه — فاخْتارا أن يَتَحَوَّلا إلى صُورةِ الجَوادِ؛ لإِنجاز خُطةٍ رسَماها، وانْتَوَيا مَعًا أن يُحَقِّقاها. أو لعلَّهما رأياني قادِمًا في طريقِهما، فاختارا أن يتمثَّلا في صُورَةِ جوادَيْنِ، لِيَلْهُوَا بهذه المفاجأةِ.

ولعلَّهما دَهِشا لغرابةِ مَلْبَسي، واخْتِلافِ سَحْنَتي عن أبناء البلادِ، فَراحا يُجِيلانِ أبْصارَهما في زِيِّي، ليتعرَّفا من أي البلاد السَّحيقةِ أتيتُ!

(١٠) لُغَةُ الجيادِ الناطِقَةِ

وما مَرَّ بخَلَدِي هذا الخاطرُ حتى اعتقدتُه وآمنتُ به، فأنشأْتُ أقولُ لهما: «سَيِّدَيَّ العزيزَيْنِ! إذا كُنْتُما ساحِرَيْنِ — وما إخالُكُما إلّا هكذا — فأنتما بلا رَيْبٍ عارِفانِ بجمِيع لُغاتِ العالَمِ، وهذا يُتِيحُ لِي الفرصةَ لمخاطبتِكما بلُغَتِي، وما إِخالُكما تجهَلانِها على أَيِّ حالٍ. فأنا سائحٌ مسكينٌ، رمَتْنِي الأقدارُ — التي لا مَرَدَّ لأحكامِها — إلى شاطئ هذه الجزيرةِ النائيةِ، بعدَ أن أشْرَفْتُ على الغرقِ. وقد بَرَّح بي التعبُ؛ فإذا أذِنْتُما لي في رُكوبِ أحدِكما — إنْ صَحَّ أنكما جوادانِ حقًّا — حتى تُبْلِغاني بعضَ المنازلِ أو القُرَى، فإني أعيشُ بَقِيَّةَ حَياتي شاكِرًا لكما هذا الصنيعَ، وليس عندي ما أُعْرِبُ به عَنْ تقديرِي وعِرْفاني لهذا الجميلِ، إلّا هذه المُدْيَةُ الصغيرةُ وهذا السِّوارُ الجميلُ؛ فاقْبَلاهُما هديّةً مني تُذَكِّرُكُما بي في قابِلِ الأيامِ.»

ولما أتممتُ كلامي أخرجتُ المُدْيَةَ والسِّوارَ من جيبِي، وقدمتُهما إلى الجواديْن.

وكان الجوادانِ — فيما رأَيتُ يُنْصِتان إلى ما أقولُ إِنْصاتًا. وما أَتْمَمْتُ خِطابِي، حتى اسْتأْنَفا حِوارَهما صَهِيلًا وحَمْحَمةً، وظَلَّا يتحدثانِ كأنهما آدمِيّانِ يتكلَّمانِ لغةً غَرِيبَةً لا أَفْهَمُها. وكانَتْ نَبَراتُهما ومَقاطِعُ لَهْجَتِهما تَدُلُّ على ألفاظٍ مَخْبُوءةٍ في تَضاعِيفِها، وتُؤَكِّدُ لسامِعِها أنها كلماتٌ لا يَبْعُدُ أن تكونَ مُرَكَّبَةً من حُروفٍ هِجائيَّةٍ، لعلَّها أيسرُ وأبسطُ منَ الألفاظِ والحروفِ في اللُّغةِ الصِّينِيّةِ!

(١١) الْكَلِمَةُ الْأُولَى

وسمعتُهما يُردِّدانِ — في أثناء حوارِهما — كَلِمَةَ «ياهُو»؛ فَمَيَّزتُ هذا اللَّفْظَ من خِلالِ حِوارِهما، وارْتَسَمَتْ أَحْرُفُهُ في خَلَدِي، دُون أن أعرِفَ لَهُ مَعْنًى. ولقد أَجْهَدْتُ نفسِي، وأرهفتُ أُذُنِي، متتبعًا حوارَهما؛ لَعَلِّي أَتَبَيَّنُ مَدْلُولَ هذا اللَّفْظِ، فلم أُوَفَّقْ إلى فهمِ معناه الصحيح. على أنني حاولتُ جُهْدِي أن أنطِقَ بِهِ، مُحاكِيًا نَبَراتِ الجوادِيْنِ، ودَرَّبْتُ نفسي على ذلك. حتى إذا انْتَهَيا من حِوارِهما، رُحْتُ أَصِيحُ — بكل قُوَّتِي — مُرَدِّدًا لَفْظَ: «ياهُو»

مَرَّةً بعدَ أُخرى. وبَذَلْتُ وُسْعِي، حتى لفظتُ هذه الكلمةَ: حَمْحَمةً وصَهِيلًا، كما يفعلُ الجوادانِ!

وقدِ اسْتَولَتِ الدهْشةُ على الجوادَيْنِ، فكرَّرَها الجوادُ الأزرقُ المُرَقّشُ مرَّتين، كأنما أراد أن يُعَلِّمَنِيها، ويُدَرِّبَني على النُّطْقِ بها صحيحةً؛ فلم أتردَّدْ في تلبيةِ رغبتِه، وحاولتُ إمكاني حتى نطقتُها بلهجةٍ مُرْضِيَةٍ قريبةٍ من الإِجادةِ، فيما يَلوحُ لي.

(١٢) الْكَلِمَةُ الثَّانِيَةُ

وأراد الجوادُ الأحمرُ أن يُعَلِّمَني كَلِمةً أُخرَى، ولكنها كانت أصعبَ من سابقتِها، وأشدَّ تعقيدًا في نُطقِها من الكلمةِ الأولى.

وسأحاولُ أنْ أقرِّبَها إلى القارئ، وأرْسُمَ حُروفَها، على قدرِ الإِمكان؛ فقد عجزتُ عنِ النُّطْقِ بها — بادِئَ بَدْءٍ — ولم أستطِعْ ذلك إلَّا بعدَ مَرانةٍ طويلةٍ. أما هذه الْكَلِمَةُ العسيرةُ النطقِ، فهي «هوِيهِنْهِمْ»!

على أنني لم أَكَدْ أُدانِيهما في النُّطْقِ بهذه الكلمةِ الصعبةِ، حتى اشتدَّتْ دهشتُهما.

ثم تحدَّثا: صَهِيلًا، وتكلَّما: حَمْحَمَةً. وما أشُكُّ في أنَّ حِوارَهما لم يَعْدُ الحديثَ عَنِّي. ولما انْتَهَيا من حديثِهما، اسْتأذَنَ كلٌّ منهما صاحبَه في الاِنصرافِ؛ فحيّا كلٌّ منهما الآخرَ — في أدبٍ ولُطْفٍ — وتلامَسَتْ قَدَماهُما، كما تتصافحُ يَدَا الصديقينِ. ثم ذهب الجوادُ الأحمرُ في طريقِه، وأشار الجوادُ الأزرقُ إليَّ أنْ أسيرَ أمامَه؛ فلم أتَرَدَّدْ في إطاعَةِ أمرِه، ولم يكُنْ في وُسْعِي أن أهتديَ إلى دليلٍ خيرٍ منه.

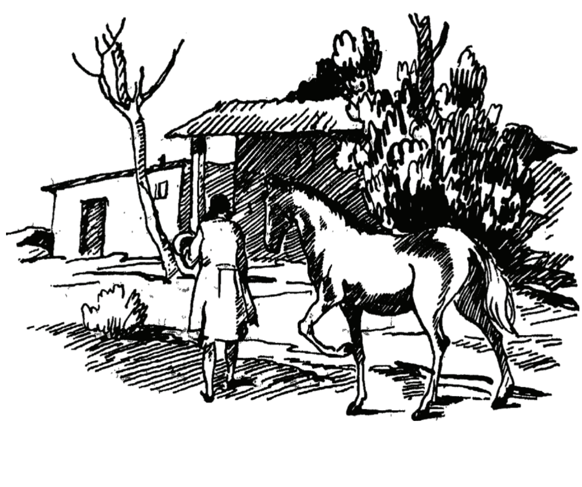
وكنتُ — إذا تَلَكَّأْتُ في سيرِي — أسمَعهُ يصيحُ بي مُحَمْحِمًا، يستحِثُّني على الإِسراع في سيرِي. وقد أدركتُ غرضَه؛ فأشرتُ إليه إشاراتٍ لِأُفْهِمَه أن السيرَ قد جَهَدني وأَضْنَى قُوايَ، وأنني قد عَجَزتُ عَنْ مُواصلةِ الْمَشْيِ، لشدةِ ما اسْتولَى عليّ من التعبِ والإِعياء.

وقد فهِم الجوادُ إشارتي، وأدرك ما أَعْنِيه؛ فوقف إلى جانبي متلطِّفًا كريمًا، وأشار إليَّ أن أَكُفَّ عن السيرِ، وأَنْعَمَ بنصيبِي منَ الرَّاحةِ.

الفصل الثاني

(١) في ضِيافةِ الجواد

وما زِلْنا سائِرَيْنَ، حتى قَطَعْنا أَمْيالًا ثلاثةً تقريبًا، ثم انْتَهَيْنا إلى منزلٍ كبيرٍ، ولكنه منخفضٌ شديدُ الانخِفاضِ؛ حِيطانُهُ من الخشب، وسَقْفُه من القَشِّ. وما وَصَلْتُ إلى المنزلِ حتى سُرِّيَ عني، وبدأتُ أشعُر بشيءٍ كثيرٍ منَ الرَّاحةِ، ثم اعْتزمتُ أن أُهْدِيَ إلى أهلِ المنزلِ لُعبًا صغيرةً — مما تعوّدَ السائحون أن يُقدِّموها إلى الهَمَج من سُكّانِ البلادِ — لِأُدخلَ على نُفوسِ أهلِ البيتِ شيئًا من الفَرَحِ والابْتِهاجِ.



وقد أَدخلني ذلك الجوادُ حُجْرَةً كبيرةً، أَرْضُها من الترابِ الكَثِيفِ، وهي مُنَسَّقةٌ أَجملَ تنسِيقٍ، وفي أَحدِ أَركانِها مَعْلَفٌ طويلٌ. وكان ذلك الجوادُ على غايةٍ من الأدبِ والِاحتِشامِ.
وما أدخلني حتى رأَيتُ فيها جيادًا ثلاثةً، وفَرَسَيْنِ أُنْثَيَيْنِ. ولم تكَنْ تلك الأفراسُ الخمسةُ تأكلُ شيئًا — حينئذٍ — وكان بعضُها جالسًا جِلْسَةَ الْمُحْتَبِي؛ فزاد ذلك في دَهْشَتِي، وعجِبتُ من قُدْرَةِ هذه الجيادِ على التَّشَبُّهِ بِالرِّجالِ في كثيرٍ من حركاتِها.

ثم تعاظَمَتْنِيَ الحَيْرةُ حينَ رأَيتُ الجيادَ الخمسةَ ماثِلَةً لِخِدْمَةِ هذا السِّيدِ الجوادِ الذي صَحِبَني إلى بيتِه.

وكُنْتُ كُلَّما أَنْعَمْتُ النَّظَرَ فيها أَيقنتُ أَنها جِيادٌ حَقًّا، وليستْ سَحَرَةً — كما توهَّمتُ من قبلُ — وتمثَّلَ لخاطِري رُقِيُّ الشَّعْبِ في هذه البلادِ، وقلتُ لنفسي: «إِنَّ شَعْبًا يستطيعُ أن يُهَذِّبَ حيوانَه مثلَ هذا التهذيبِ، ويَسْمُوَ بِخَيْلِهِ إلى هذا الأَوْجِ، لا بُدَّ أَنْ يكونَ أَوْفَرَ شُعُوبِ العالَمِ ذكاءً، وأَرْجَحَهم عقلًا!» ودخل السيدُ الجوادُ الأزرقُ الْمُرَقَّشُ في أَثَرِي؛ حتى لا يُصيبَنِي منَ الجيادِ الأخرى مَكْرُوهٌ ولا أذًى، ثم تحدَّثَ إِليها صاهِلًا مُحَمْحِمًا، في لَهْجَةِ السَّيِّدِ الآمِرِ الْمُطاعِ، فأجابَتْه الأَفراسُ الأُخْرَى — صاهِلَةً مُحَمْحِمَةً — تَرُدُّ عَلَى خطابِه إليها.

(٢) هَواجِسُ «جَلِفَر»

ثم اسْتأنفَ الْجَوادُ سيرَه — وأنا في أَثَرِه — حتى اجْتَزْنا حُجْرتَيْنِ أُخْريَيْن، وأشار إليّ هذا السيدُ أَنْ أتريَّثَ في مكاني حتى يعودَ، وتركَني مُنفردًا، ثم دخل حُجْرَةً ثالثةً.
وأعددتُ الهدايا لأقدِّمَها إلى صاحبِ البيتِ وزوجتِه، وأخرجتُ من جُيوبي مُدْيَتيْنِ، وثلاثَ أساوِرَ مِنَ اللُّؤلُؤ الزَّائفِ، ومِرْآةً صغيرةً، وقِلادةً مِنَ الزُّجاجِ.
وسمِعتُ صوتَ الجوادِ — وهو يصهَلُ مرتين أو ثلاثًا — فأرهفْتُ أُذُنَيَّ: لَعَلِّي أسمعُ جوابَ إنسانٍ، آنَسُ بقُرْبِه بعد وحشةٍ، واعتقدتُ أَنَّ صاحِبَ البيتِ سيحضُرُ بعد قليلٍ.
ولكنَّ ما توقعتُه لم يَحْدُثْ، فقد سمعتُ صهيلًا وحَمْحَمةً — داخِلَ البيتِ — جوابًا عن صهيلِ السيدِ الجوادِ وحَمْحَمَتِه، ولم تَتَبَدَّلْ تلك اللغةُ.
على أنَّ الصَّهيلَ — في هذه المرةِ — ازدادَ وُضوحًا، وأصبحتْ نَبراتُ الصَّوْتِ — في أُذُنِي — أكثرَ جَلاءً، وكان جَرْسُ الصَّاهِل — حينئذٍ — أَدَقَّ وأَبْيَنَ من جَرْسِ السيدِ الجوادِ الذي قدِم معي إلى البيتِ.

ودارَ بخَلَدي أن صاحبَ البيتِ عظيمٌ — بلا ريبٍ — من عُظَماءِ البلدِ، وأنَّ خَدَمَه يَحْجُزُونَنِي في هذه الْحُجْرَةِ حتى ألقاه.

ولكنَّ حَيْرتي كانتْ شديدةً، فقدْ كانَ من المُحالِ عليَّ أن أَفْهَمَ أَنَّ عظيمًا من الناسِ يخْتارُ لِخِدْمَتِه جمهرةً من الجِيادِ.

وخشِيتُ أن تُسْلِمَني هذه الوساوسُ والأوْهامُ إلى الْهُتْرِ والْخَبالِ، فيتمَّ بذلك شَقائي، وظللْتُ أُجِيلُ البصرَ في أنْحاءِ الْحُجْرَةِ التي حَلَلْتُ فيها، وكانتْ شديدةَ الشَّبَهِ بِالْحُجْرَةِ السَّابِقَةِ، وإنِ امْتازَتْ عنها بشيءٍ منَ الأناقةِ.

ولم أدْرِ: أحالِمٌ أنا أم يَقْظانُ؟ فَفَركْتُ عينيَّ لأتثَّبتَ مما يكتنِفُني؛ فلم أَرَ غَيْرَ ما رأيتُ من قبلُ. ثم شدَدْتُ ذِراعي، ودَلَكْتُ جَنْبِي، لعلِّي أصْحُو من هذا الْحُلْمِ العَجِيبِ؛ فلم يتبدَّلْ شيءٌ من المناظِرِ الْمُحَيِّرَةِ. وثَمَّةَ أيقنتُ أنني حَلَلْتُ — بلا شَكٍّ — بِلادَ السَّحَرةِ والعَفاريت.

(٣) سادَةُ البيتِ

وإنِّي لغارِقٌ في هَواجِسي وخَواطِري، إذْ عادَ إليَّ الجوادُ الأزرقُ الْمُرَقَّشُ، فقطعَ عليّ سِلْسِلَةَ هذهِ الأفكارِ، ثم أشار إليَّ أن أَدْخُلَ معه الْحُجْرَةَ الثالثةَ. وما دَخَلْتُها حَتَّى رأَيتُ فَرَسًا أُنْثَى جالسةً على حَصِيرٍ غايةٍ في النَّظافِة وحُسنِ التنسيقِ. وكانت هذه الفرسُ آيةً من آياتِ الْجَمالِ والْحُسْنِ، ومعها مُهْرٌ جميلٌ ومُهْرَةٌ رَشِيقَةٌ، وكانت ثلاثتُها جالسةً على سُوقِها الخلْفِيَّةِ، وقد ثَنَتْها تحتَ أعْجازِها.

وما دَخَلْتُ هذه الْحُجْرَةَ، حتى وقَفتْ تلك الفرسُ، ومَشَت نَحْوِي حتّى دانَتْني، ثم أجالتْ بَصَرَها فِيَّ، وأنعَمتِ النظرَ في وَجهي ويَدَيَّ، ولم تَنْتَهِ من ذلك حتى نظرتْ إليَّ بِازْدِراءٍ واحتقارٍ.

والتفتتْ تلك الفرسُ إلى الجوادِ، وظَلَّتْ تَصْهَلُ — وهي مُحْنَقَةٌ غَضْبَى — وكان زَوْجُها يجيبُها بلغتِه، ثم تَرُدُّ عليه، وهكذا دَوَالَيْكَ.

واسترعَى سَمْعِي أنهما كانا يُكثِرانِ من ترديدِ كلمةِ «ياهو»، وكنتُ — إلى هذه اللحظِةِ — أجهلُ معناها، وإن كانتْ هي أولَ كلمةٍ دَرَّبْتُ نفسي على النُّطْقِ بها من هذه اللغةِ الصَّاهلةِ.

على أنني اسْتطعتُ أن أتعرّفَ معنَى هذه الكلمةِ الْمَشئُومةِ فيما بعدُ. ومَا عَرَفْتُ مَدْلُولَها حَتَّى تَمَلَّكَنِي الْغَمُّ، واسْتولَى عليَّ الحزنُ والأَلَمُ.

(٤) «الْياهُو»

وقد أشارَ إليَّ الجوادُ برأسِه أن أَتْبَعَهُ؛ فسِرْتُ في إثْرِه حتى وَصَلْنا إلى فِناءٍ يصلُحُ لتربيةِ الدَّواجِنِ من دَجاجٍ وَطَيْرٍ. فلما اجْتَزْناهُ رأيتُ فِناءً آخرَ على مسافةٍ قريبةٍ منه. فَلَمَّا دخلْناه اسْترعَى بصرِي ثلاثةُ مخلوقاتٍ مقلوبُو السَّحَنَاتِ، مُشَوَّهُو الوجوهِ، ذكَّرتنِي بتلك الْمَخلوقاتِ التَّاعِسَةِ التي اعْترضَتْنِي عندما حَللتُ الجزيرةَ.

ورأيتُ في أَعناقِها سلاسلَ وأَغْلالًا، وكانت حينئذٍ مشغولةً بالْتهامِ بعضِ الْجَزَرِ، وتمزيقِ ما أَمامها من اللّحمِ. وقد علمتُ — حينئذٍ — أنَّ اللَّحْمَ الذي قدَّموه إليها هو لحمُ حِمارٍ، ولحمُ كلبٍ، ولحمُ بقرةٍ. وكان النَّهَمُ بادِيًا على أَسارِيرِها، وهي مُقْبِلَةٌ على تَمْزيقِه في شَرَهٍ عجيبٍ.

ثم أَمر السيدُ الجوادُ حصانًا صغيرًا أَشقَرَ أَنْ يأتيَ بأحدِ هذه المخلوقاتِ التَّعِسَةِ، بعد أَن يَفُكَّهُ من قَيْدِه. فذهب الخادمُ إلى أكبرِ حيوانٍ منها وأَحضرَه، ثم وقف السيدُ الجوادُ ومُهْرُهُ الخادمُ يتأمَّلانِ في وجْهَيْنا، ويُطيلانِ الفحْصَ في دِقَّةٍ واهتمامٍ، ثم ردَّدا كلمةَ «ياهو» مَرَّاتٍ عِدَّةً.

وليس في مَقْدُورِي أنْ أَصِفَ ما اسْتولَى عليّ من الهلَعِ والدَّهْشَةِ والْحَيْرِةِ، حين تبيّنَ لي أن «الياهو» — في مظهَرِه وشكلِه الخارجيِّ — أقربُ المخْلوقاتِ شَبَهًا بالإنسانِ، وإن لم يَكُنْه، عَلَى التَّحْقِيقِ.

وما أراه يختلفُ — عن بَنِي الإنسانِ — اخْتلافًا جَوْهَرِيًّا، فلستُ أُنكِرُ أنه عريضُ الوجهِ، مُسَطَّحُهُ، وأنه أَفْطَسُ الأنفِ، غليظُ الشَّفَتيْنِ، واسعُ الفمِ. ولكنَّ هذه السِّماتِ — وإن فرّقَتْه عَنَّا — لا تفصِلُه عن الْجِنْسِ الآدميِّ كُلِّهِ؛ فإن أَكثرَ الهمجِ وسَوادَ المتوحِّشِينَ يُشْبِهُون هذا المخلوقَ، أَو يُدَانُونه في الشَّبَهِ.

والأُمَّهاتُ — في تلك الشعوبِ — يُرْقِدْن أَبناءَهُنَّ ووجوهُهم إلى الأرضِ، ويحمِلْنهم على ظُهورِهنَّ؛ فتَضغَطُ أَكتافُ الأمَّهاتِ على أُنُوفِ الأبناءِ فَتُفَلْطِحُها. ومتَى كبرَ أَطفالُهن، أَصْبَحُوا فُطْسَ الأُنُوفِ.

ولهذا «الياهو» يَدانِ تُشْبهانِ أَيْدينَا، وإِن كانتِ الأَظافِرُ طويلةً جدًّا. أَمَّا بَشَرَتُه فهي سمراءُ صُلبَةٌ، مُغَطَّاةٌ بالشعرِ، وساقاهُ تُشبِهان سُوقَنا، وأَظافرُ قَدَمَيْه طويلة كأظافرِ يَدَيْهِ.

ولا تخْتلفُ بقيَّةُ أَعضاء جسمِه عن أَعضائِنا في شيء، ما خلا اللونَ والشعرَ.

وإنما أَدْهَشَ الجواديْنِ وحَيَّرَ عَقْلَهُما ما رَأَيا من الفَرْقِ العظيمِ بيني وبينَ «الياهُو» الممقوتِ. وكان مصدرُ هذا الخلافِ يرجِعُ إلى ثيابيَ التي تستُرُ جسمي، ويَحْسَبُها الجيادُ فارِقًا جَوْهَرِيًّا بيني وبين هذا الحيوانِ. وللجيادِ العذرُ؛ فلم يَكُنْ لها سابِقُ عَهْدٍ بِمِثْلِ هذهِ الثِّيابِ؛ فلا عَجَبَ إذا دَخَلَ في رُوعِها أَنَّها جُزْءٌ من جِسْمِي.

(٥) طَعامُ «الياهو»

ثم قَدَّم إليَّ ذلك الجوادُ الصغيرُ شيئًا من الجزَرِ، وكان يُمسِكُ به بينَ حافرِه وسُنْبُكِه. وما تَعَرَّفْتُهُ حتى رَجَعْتُه إليه، في أدبٍ واحْترامٍ عظيميْن. فذهب إلى مكانِ «الياهو»، وعاد بقطعة من لحمِ حمارٍ، فلما شمَمْتُ رائحتَها تَقَزَّزْتُ، واشتدَّ نُفُورِي واشْمِئْزازِي منها؛ فأَلْقَى بها الجوادُ إلى «الياهو»، فالْتَهَمَها في شَرَهٍ ونَهَمٍ.

ثم أشار الْجوادُ الْخادِمُ إلى كَوْمَةٍ من العلَفِ، وكِيسٍ مملوءٍ بالشُّوفانِ، فهزَزْتُ رأسي إيذانًا بالرفْضِ؛ فأدرك أنني لن أقبلَ شيئًا من هذه الأطعمةِ المختلِفةِ كلِّها.

واشْتَدَّ بِيَ الْجُوعُ، وخَشِيتُ أن أَهْلِكَ في هذه الجزيرةِ، بعدَ أن عَجَزتُ عن الاهتداءِ إلى طعامٍ صالِحٍ لِغذائي، أو إنسانٍ يَشْرَكُني في الحديثِ، ويهدِينِي إلى غِذاءٍ أُقِيمُ به أَوَدِي.



أما أُولئك «الياهو» الحُقَراءُ، فإني لا أُطيقُ رؤيتَهم. ولستُ أُنكِرُ أنني صاحبتُ كثيرًا من أشباهِهم من بني الإنسانِ في بلادِي من قبلُ، ولكنني شَعَرْتُ بنفُورٍ شديدٍ، وكراهِيَةٍ نادرةٍ لهم في هذه البلادِ الموحِشَةِ، وأصبحتُ كُلَّما أطَلْتُ التأملَ فيهم، اشتد مَقْتِي لهم وبُغْضِي إيّاهم.

ورأى السيدُ الجوادُ في سِيمايَ دلائلَ الضَّجَرِ والْألمِ؛ فأمر خادمَه أن يَرجِعَ «الياهو» إلى مكانِه، ثم رفع إحدى قدميه الأماميّتَيْنِ في سُهُولةٍ عجيبةٍ أدهشَتني، وأشار بها إلى فِيهِ، كأنما أراد أن يسألَني عمَّا آكلُه؛ فلم أعرِفْ كيف أُجِيبُه، وما أَظنُّه قادرًا على تهيئةِ الطَّعامِ الذي تشتهِيه نفسِي إذا طلبتُه منه.

ومرَّتْ — في هذه الأثناءِ — بقرةٌ — فأشرتُ إليها بإِصبَعي. فلما وَقفوها أَشرتُ إلى ضَرْعِها؛ فأدرك السيدُ الجوادُ أنني أُريدُ أن يَحْلُبُوا لي شيئًا من لبنِها؛ فأشار إليّ أن أَتْبَعَه إلى منزلِه، ثم أَمر خادمَه أَن يفتحَ لي حُجْرَةً أُخْرى؛ فرأَيتُ فيها كثيرًا من الآنِيَةِ مملوءةً لَبَنًا، وقد صُفّتْ بعضُها إلى بعضٍ، وهي غايةٌ في النظافةِ وحُسْنِ التنسيقِ.

ثم أَعطانَي الخادمُ طَبَقًا مملوءًا بالْحَلِيب؛ فَشَرِبتُه سائِغًا هنيئًا، وشَعرتُ — حينئذٍ — بالحياةِ تدِبُّ في عُرُوقِي بعد أَن جَهَدَنِي الْجُوعُ.

(٦) في حُجْرَةِ المائدةِ

ولما حانَ وقتُ الظُّهرِ، رأَيتُ مَرْكَبَةً يجرُّها أَربعةٌ من «الياهو» إلى المنزِلِ، وقدِ اعْتَلاها جَوادٌ حسنُ المنظرِ، يَلُوحُ لي أَنه جليلُ القَدْرِ، عظيمُ الخَطَرِ. ثم نزل ذلك الجوادُ من الْمَرْكَبَةِ على قائِمَتَيْهِ الخلفيّتَيْنِ؛ لأن رِجْلَه الأماميةَ اليسرَى كانت مجروحةً، فلم يستطعِ السيرَ عليها.

وكان هذا السيدُ الجوادُ قادِمًا إلى البيتِ ضيفًا كريمًا على صاحبِه؛ فلَقِيَه رَبُّ البيتِ في أَدبٍ واحْترامٍ، وجلسا يَأْكُلان في أَفخمِ حُجْرَةٍ. وكانتِ المائدةُ حافلةً بالشُّوفانِ أُغْلِيَ في اللبن، وقد شرِبه الجوادُ الهرِمُ ساخِنًا، أَما بقيةُ الجِيادِ الأُخرَى، فقد آثرتْ أَن تشربَه بارِدًا.

وكانتِ الموائدُ مَصْفُوفَةً في وسَطِ الحُجْرَةِ على شكلِ دائرةٍ، وهي مقسَّمةٌ أَقسامًا عدَّةً، وجلستِ الجيادُ أَمامَها عَلَى كوماتٍ من القَشِّ. وكان في وسَطِ الْحُجْرَةِ مَعْلَفٌ كبيرٌ مقسَّمٌ أَقسامًا كثيرةً، بحيثُ يأكلُ كلُّ فرسٍ منها نصيبَه منَ العلَفِ والشُّوفانِ واللبنِ على انْفرادٍ. وكانوا يأكلون ويشرَبون في أَدبٍ واحْتِشامٍ عجيبَيْنِ.

وكانت الْمُهُورُ الصغيرةُ غايةً في الدَّماثَةِ، وحُسْنِ الذَّوقِ، وقد بدا إجلالُها وتَوْقِيرُها لشُيوخِ الجِيادِ واضِحَيْنِ لِلْعِيانِ. وكان أَصحابُ البيتِ غايةً في اللُّطْفِ والسَّماحةِ مع ضُيُوفِهمُ الْأَعِزَّاءِ.

وقدِ اسْتدعانِي الجوادُ الأزرقُ المرقَّشُ، وأَمرني بالجلوسِ إلى جانبِه. وسمعتُه يُلْقِي إلى جارِه مُحاضرةً طويلةً، أغلبُ الظَّنِّ أنها كانت عَنِّي. فإِني رأَيتُ ذلك الجارَ ينظرُ إليّ مرةً بعدَ أُخرى، وسمعتُهما يردِّدان كلمةَ «ياهو» في حوارِهما الطويلِ.

ثم عَنَّ لي أَنْ أَلْبَسَ قُفازِي، ولم أَكَدْ أفعلُ حتى دَهِش السيدُ الجوادُ الأزرقُ المرقَّشُ، وحار فيما رآه، وعجِب كيف تَغَيَّر شكلُ يدي، واسْتحال إلى ما يراه. فأشار إليَّ إشاراتٍ تدُلُّ على دهْشتِه وعَجَبِه، ولَمَس يدَيّ برجلِه مرتيْنِ أو ثلاثًا، ثم أَشار إليّ أن أُعيدَهما إلى شكلِهما الْأَوَلِ. فلم أَترددْ في تلبيةِ رغبتِه. وخَلَعْتُ القُفّازَ — من فَوْرِي — ووضعتُه في جيبِي كما كان. فلما رأَوْا ما صنعتُ تعاظَمَتْهُمُ الحيرةُ. واسْتَوْلَتْ عليهمُ الدهشةُ.

وقدِ اشْتدَّ عَجَبُ الحاضرينَ، حينَ طلب إليّ رَبُّ البيتِ أن أَنْطِقَ بالكلماتِ الصاهِلَةِ التي تعلّمتُها منه، وكان قد علَّمني — في أَثناءِ العَشاءِ — أَسماءَ الشُّوفانِ واللبنِ والنارِ والماءِ، وما إلى ذلك منَ الضَّرُوريّاتِ. وكان ينطقُ الكلمةَ فَأُرَدِّدُها أَمامَ الحاضرينَ في سُهولةٍ

نادِرةٍ. وقد أَعانني على ذلك ما أَكْسَبَتْنِيه مَرانتي على تعلُّمِ اللُّغاتِ المختلِفةِ — في أثناءِ تَجوالِي وأَسفاري المختلِفَةِ — فلم أَجدْ عَناءً في فَهمِ هذه الكلماتِ وترديدِها في زمنٍ وَجيزٍ.

(٧) طعامُ «جلفر»

ولما انْتَهَوْا من طعامِ العَشاءِ انْتَحَى بي ربُّ البيتِ جانبًا، وأَعْرَبَ لي عن أَلمِه وحُزْنِه بإشاراتٍ شتَّى، وألفاظٍ مُوجَزةٍ مُقْتَضَبَةٍ، وذكر لي ما يُساوِرُ نفسَه منَ الْحُزْنِ والْقَلَقِ عليَّ، لأنني لم أشرَكْهُم في طعامِهم.



ثم ردَّدتُ أَمامَه لَفْظَ «الشُّوفانِ» — وكنتُ قد تعلَّمتُهُ في لغتِهم — ونطقْتُهُ مرَتيْن أو ثلاثًا؛ فأدرك أنني أُوثِرُ هذا الطعامَ على غيرِهِ من أَلوانِ الأطعمةِ عندَهم.

وقدِ اقْتنعتُ — بعدَ طولِ التأمُّلِ والرَّوِيَّةِ — أن الشُّوفانَ أقربُ الأغذيةِ إليَّ — إذا مُزج باللبنِ — ليَحْفَظَ كِيانِي حتّى لا يتهدَّمَ. ولم يكُنْ لي بُدٌّ من ذلك بعدَ أن رأيتُ الْأَغذيةَ كلَّها

لا تلائمُني. وقد عَوَّلْتُ على أن أُعَوِّدَ نفسي هذا الطعامَ الكَرِيهَ، حتى تُتاحَ لي فرصةٌ للفِرارِ من هذه البلادِ إلى مكانٍ آخرَ فيه ما تشتهِيهِ نفْسِي من الطعامِ.

فأمر السيدُ الجوادُ فرسًا بيضاءَ — من خَدَمِه — أن تُحضِرَ لي شيئًا من الشوفانِ. ولم تَمْضِ لحظةٌ قصيرةٌ حتى عادتْ تحمِلُ صَحْفَةً كبيرةً منَ الخشبِ، مملوءةً بالشوفانِ.

فوضعتُ الشوفانَ في الفُرْنِ، وصَبَرْتُ عليه حتى أنضجَتْه النارُ. ثم فَرَكْتُه بيدَيَّ — بعد أن بردَ — حتى فَصَلتُ قِشْرَه عنه، ثم طَحَنْتُ حَبَّهُ بين حَجَرَيْنِ، وصببتُ عليه الماءَ، وصنعتُ من عجينتِه فَطِيرةً، ثم خبزتُها في الفرنِ، حتى إذا نضِجتْ غَمَستُها في اللبنِ، وأكلتُ منها ما يكفِينِي. وبذلك ذَهَبَ عني ألمُ الْجوعِ.

ولم أَستمْرِئْ هذا الطعامَ — أولَ أمْرِي — وإن كان كثيرٌ من المتحضِّرِينَ يألَفُونه في بلادِنا، ولكنني تعوّدتُ أن أَسْتسِيغَه وآلَفَهُ بعد زمن قصيرٍ.

وللضرورةِ أحكامٌ قاهرةٌ لا سبيلَ إلى مُغالبَتِها، تُرْغِمُ الإنسانَ على أن يَرى حسنًا ما لَيْسَ بالحَسَنِ، ويستمرئَ منَ الطعامِ ما لم يكُنْ لِيَسْتَسِيغَه من قبلُ.

ورأيتُ أَنَّ جَوَّ الجزيرةِ يلائِمُني أشدَّ المُلاءَمَةِ، وكنتُ — في بعضِ الأحايينِ — أصطادُ أرنبًا أو طائرًا، بعدَ أن أصنعَ لي حِبالةً (شَبكةً) من شَعْرِ «الياهُو».

واهْتَدَيتُ إلى حَشائِشَ أُخرى؛ فصنعتُ منها بعضَ الكَوامِخِ. وكنتُ أَتَغَذَّى — أحيانًا — بقطعةٍ منَ الزُّبْدِ الذي أصنعُه بنفْسِي، ولم يكن يُعْوِزُني — حينَئذٍ — إلَّا المِلحُ، ولكنَّ الحاجةَ أرغمَتْنِي على أَن أَستسيغَ الطعامَ بدونِه.

وقدِ اسْتَخْلَصتُ من ذلك نتيجةً صحيحةً، هي أن التجاءَنا إلى المِلْحِ هو نتيجةُ إفْراطِنا في الشَّرَهِ والنَّهَمِ. وقد رأَيتُ أَن الإنسانَ هو الحيوانُ الوحيدُ الذي يَشِذُّ عن بقيةِ أَجناسِ الحيوانِ، إذْ يخلِطُ المِلحَ بطعامِه. وقد بذلتُ جُهدًا كبيرًا — بعد أَن تركتُ الجزيرةَ — حتى ارْتَضَيْتُ الرُّجُوعَ إلى استعمالِ الملحِ واسْتِساغَتِه.

(٨) فِرَاشُ «جلفر»

حَسْبِي أَن أَجتزِئَ بهذا القَدْرِ منَ الحديثِ عن غِذائي؛ فقد طالما أَخذتُ على غيري من السَّائِحينَ عنايَتَهم بالكلامِ عن أَلوانِ الْأَغذيةِ والْأَطعِمةِ، وطالما نَدَّدْتُ بهم لأنهم يملئُون

كُتبَهم بتلك الأحاديثِ التافهةِ عنِ الطعامِ، ويُعْنَوْنَ بها عنايةً نادرةً، ويعظِّمون من خطرِها ما حَقُر؛ ليعرِفَ القارئُ هل تمتَّعُوا بالطعامِ واسْتَمْرَءُوه، أم نَقَصَ حظُّهم منه فلم يَهْنَئُوه؟

على أنني اضْطُرِرْتُ في هذا المَقامِ إلى الإفضاءِ بهذا التفصيلِ المُوجَزِ، لأنني لم أَجِدْ بُدًّا من إثباتِه في كتابي؛ حتى لا يتهمَني أَحَدٌ من القُرَّاءِ بالمُغالاةِ والخِداعِ فيما أَقُصُّه عليه من أَنباءِ الجزيرةِ. فليس من السَّهلِ عليهم أَن يَتصوَّرُوا هذا النظامَ الغذائيَّ الذي اتَّخَذتُهُ في أَثناء مُقامِي بين الجيادِ الناطقةِ ثلاثَ سنواتٍ كاملةً.

بقيَ عليّ أَن أُحدِّثَ القارئَ عن أُسلوبِ نَوْمِي في تلك البلادِ، وهو حديثٌ مُوجَزٌ قصيرٌ. فقد خصَّنِي السيدُ الجوادُ بحجْرةٍ على بُعْدِ خُطُواتٍ سِتٍّ من بَيْتِهِ، وهي مُنْعَزِلَةٌ عن بيتِ «الياهُو». وقد فرشتُها بِكوماتٍ عدةٍ منَ القشِّ؛ لتكونَ لي فِراشًا في أَثناءِ النومِ.

وكنتُ أَرتدِي ثيابي في الْيَقَظَةِ والنَّوْمِ، وأَقضِي الليلَ هادئًا مستريحًا، ولم يَمْضِ عليّ زمنٌ يسيرٌ، حتى انْتَظَمَتْ أَحوالي، واسْتقامَتْ أُمُوري في هذه الجزيرةِ، كما يرى القارئ في الفصولِ القادمةِ من الكتابِ.

الفصل الثالث

(١) دَرْسُ اللُّغَةِ الصَّاهِلَةِ

كان أكبرَ هَمِّي، وقُصارَى أُمنيّتِي: أن أدْرُسَ اللغةَ الصاهلة، التي يُحَمْحِمُ بها السيدُ الجوادُ. وكان أَبناءُ هذا السيِّدِ وَخَدَمَتُهُ يُبادِرُونَ إلى تحقيقِ هذه الرغبةِ، وبِهم منَ الشوقِ إلى تعليمي مثلُ ما بي منَ الرَّغبةِ في التعلُّمِ.

وقد رأَوْا في ذكائي مُعجِزةً نادرةً، وأَدْهَشَهم أن يعثُروا على واحِدٍ منَ «الياهُو» يستطيعُ أن يفهمَ ويفكِّرَ؛ لأنهم لا ينظُرونَ إلى الأناسِيِّ مِنْ أَمثالي في بلادِهم، إلَّا كما ننظرُ نَحْن إلى الجيادِ مِنْ أمثالِهم في بلادِنا!

وكانوا يَعْجَبُونَ أَشدَّ العجَبِ، إذ يَرَوْنَ دابَّةً مثلي تُجِيبُ عن إشاراتِهم، وتُبادلُهمُ الحديثَ. ولم أكُنْ أَتوانَى في درْسِ هذه اللغةِ، ولم أُضِعْ شيئًا من وَقْتِي عبثًا. فظَلَلْتُ أُشيرُ إلى كلِّ ما يكتنِفُنِي منَ الأشياءِ؛ لِأَتعرَّفَ مِن هؤلاءِ السَّادةِ أسماءَها. فإذا حَمْحَمُوا به حَفِظْتُه — من فَوْرِي — وردَّدتُه مراتٍ عدةً. فإذا خَلَوْتُ إلى نفسي قيَّدْتُه في دَفْتَرِ سِياحاتي؛ حتى لا أَنساه.

وكنتُ أحاولُ إمْكانِي أن أُحاكِيَ الجيادَ في صُهالِها وحَمْحَمَتِها؛ حتى يَمْرُنَ لساني على نُطْقِ ما أَسْمَعُه. وقد وَكَلُوا بي جوادًا أَدْهَمَ — في مُقْتَبَلِ صِباهُ — لِيلازِمَني وَيتعهَّدَني بالحديثِ طولَ الوقتِ. وكان هذا الجوادُ خادِمًا من عامَّةِ خدمِهم، وقد بذلَ جهدَهُ في ترديدِ الكلماتِ التي طلبتُ سماعَها منه، وَلم يُقَصِّرْ في تعليمي وتدريبي على الحَمْحَمَةِ والصَّهيلِ.

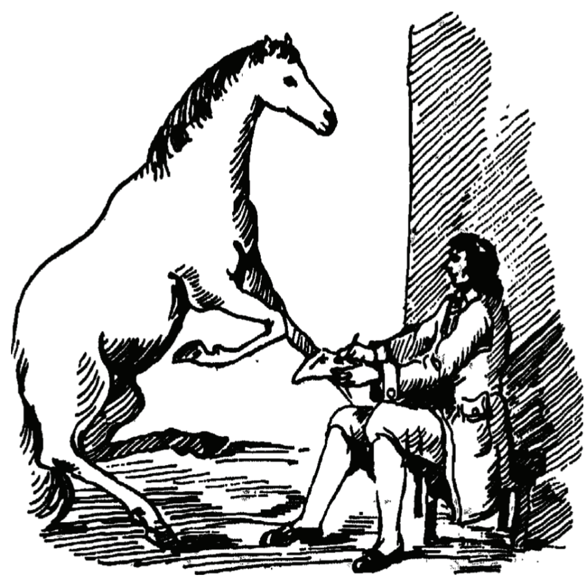
ومِنْ عادةِ هؤلاءِ الجِيادِ أن يُحَمْحِمُوا منَ الأنفِ والْحُلْقومِ جميعًا. وقد رأَيتُ أَنَّ جَرْسَ هذه اللغةِ أَدنَى إلى جَرْسِ اللُّغتيْنِ: الهولنديةِ والأَلْمانيةِ، مِنْهُ إلى أَيَّةِ لغةٍ أخرى من لُغاتِ

«أوروبَّا». ولكنَّ جَرْسَ اللغةِ الصاهلةِ أَعذبُ مَسْمَعًا، وأَبلغُ تعبيرًا، من هاتَيْنِ اللغتين. وقد فَطنَ الإِمبراطورُ «شَرْلَكان» إلى هذه الْمُلاحظةِ؛ فأَودَعها كلمتَه الْمَأثورةَ:

«لو أَردتُ أَن أَتحدَّثَ إلى جوادٍ لخاطبتُه بالألمانية!»

(٢) في خلالِ أَشهرٍ ثلاثة

وكان السيدُ الْجَوادُ يكادُ يلتهِبُ شوقًا إلى مُحاوَرَتِي بلغتِه الصَّاهِلَةِ، ولا يألو جهدًا في تذليلِ كلِّ عقبةٍ تعترضُ هذه الرغبةَ. واشتدَّ شَغَفُه بتعليمي هذه اللغةَ؛ فكان يلازِمُني — في أَوقاتِ فَراغِهِ كلِّها — ويُؤْثِرُ أن يتعهدَني بالدرْسِ على أن يُريحَ جسمَه من عناء العملِ.



وكان هذا السيِّدُ لا يَشُكُّ في أَنني إنسانٌ، أي أَنني «ياهو»، وهو اسْمُ الإِنسانِ في لغتِهم. وهم يَعُدُّونَ هذه الدابَّةَ الْآدَمِيَّةَ مِثالَ الانْحطاطِ والتَّرَدِّي. ولكنَّ ما رآه السيدُ من أَدبي، ودَماثَةِ خُلُقي وعِنايتي بالنظافةِ، واسْتِعدادِي للتعلُّمِ، وإقبالي على الدرسِ: قد أَدهَشَه،

وحيَّرَ لُبَّه؛ لِأَنه كان مؤمنًا إيمانًا وثيقًا أَن هذه الخِلالَ المحمودةَ تتنافَى مع ما أَلِفُوهُ من طبيعَة الدوابِّ الإنسانِيَّةِ التي تعيشُ في بلادِهم.

وكانت ثيابي تزِيدُ في ارتباكِه وحَيْرَتِه. ولَطالما راح يُسائلُ نفسَه عن حقيقةِ هذه الثيابِ، وهل هي جزءٌ من أَجزاءِ جسمي؟ أَم هي شيءٌ خارجيٌّ منفصِلٌ عنه؟ وكنتُ إذا أَوَيْتُ إلى فِراشي ليلًا لم أَنزِعِ الثِّيابَ عن جَسَدي، إلَّا في ساعةٍ مُتأَخرةٍ من الليلِ، بعدَ أَن أَستوْثِقَ من نَوْمِ كلِّ مَن في الدارِ.

وكان السيدُ شديدَ الرغبةِ في أن يتعرَّفَ: من أَيِّ البلادِ أَتيتُ؟ وكيف انْفردتُ — من بينِ الناسِ جميعًا — برجاحَةِ الْعقلِ التي تتجلَّى في أَعمالي كلِّها؟

وجُمَّاعُ القولِ أَن السيدَ الجوادَ كان تَوّاقًا إلى سَماعِ تاريخي مُفَصَّلًا، وكان ينتظرُ اليومَ — الذي أُفضِي فيه بهذا البيانِ — بفارغِ الصبرِ، كما كان شديدَ الإعجاب بذكائي وتقدُّمي في درسِ اللغةِ الصَّاهلةِ، يومًا بعدَ يومٍ.

ورأَيتُ أن أَخطوَ خُطْوةً أُخرى؛ فأنشأْتُ من نَبَراتِ هذه اللغةِ حُروفا هِجائيَةً، أَثْبَتُّها تحتَ كلِّ كلمةٍ. وكَتبْتُها — ذاتَ يومٍ — أَمامَ السيدِ الْجَوادِ؛ فَلَمَّا رَآها تَحَيَّرَ في تَعْلِيلِها، وسأَلني أن أُفَسِّرَ له ذلك. وقد ارتبكْتُ — حينئذٍ — فَلَمْ أَدْرِ كيف أَقولُ. ولمْ يكُنْ من اليسيرِ عليَّ أن أُفْهِمَهُ شيئًا عنِ الكتابةِ؛ لأن الجيادَ الناطقةَ لا تدرِكُ شيئًا عنِ الكتابةِ والهِجاء وما إلى ذلك.

وَلم يَمُرَّ عليَّ عشَرةُ أَسابيعَ، حتى أَصبحتُ قادرًا على إجابةِ السيدِ عن أكثرِ أَسئلتِه. ولم يَنْقَضِ ثلاثةُ أشهرٍ حتى مَرَنْتُ على فهمِ هذه اللغةِ، والتعبيرِ بها، وأَداء كلِّ ما أَحْتاجُ إليهِ منْ أغراضٍ حَمْحَمَةً وصهيلًا!

(٣) الحِوارُ الصاهل

وكان أَكبرَ ما يعنِيه أن يسأَلني عن مَوْطني — كما أَسلفتُ القولَ — وأَن يتعرفَ بأي مُعجزةٍ خارقةٍ ظفِرْتُ بنعمةِ العقلِ والتَّمييزِ، مع أَنني من بني الإنسانِ، أَيْ من أَبناء «الْياهُو» — وهو اسْمُ الأَناسيِّ عندَهم — وهُمْ يَعُدُّونَهم أَحَطَّ جِنْسٍ من أَجناسِ الدوابِّ التي يعرِفونَها في تلك الجزيرةِ النائيةِ؛ فإنَّ «الْياهُو» معروفٌ في تلك البلاد بالْغَدْرِ والْخَديعَةِ ولُؤْمِ الطبعِ، مشهورٌ بالتمرُّدِ والعصيانِ، كلما أَمْكَنَتْه الفرصةُ.

وقد صدَقَ السيدُ في حُكْمِه عليَّ بأَنني من جنسِ «الْياهُو»؛ إذْ رآني أُشْبِهُهُ في الْوجهِ والْيَديْنِ، وهذه هِيَ الأَجزاءُ الظاهرة من جسمي.

وقد أَخبرتُ السيدَ: أَنني قادمٌ من بلادٍ نائيةٍ، وأَنني لم أَصِلْ إلى جزيرتِه إلَّا بعدَ أن رَكِبْتُ الْبِحارَ، وتعرَّضتُ لكثيرٍ من المخاوفِ والأَخطارِ، وكان معي جمهرةٌ من أبناء جنسي في سفينةٍ كبيرةٍ من الْخشبِ، بَنَيْناها من جُذوع الشجرِ، لتَمْخُرَ بنا عُبابَ البحرِ. ثم حدَّثْتُهُ بما فعله رِفاقي، وكيف غدرُوا بي فقذَفوني إِلى الشاطئِ، وأَسْلَمُوني إلى هذه الْجزيرةِ النائيةِ وَحيدًا.

وقد بذلْتُ جهدًا عظيمًا في إفهامِه كلَّ هذه الْمعاني، تارةً صهيلًا وَحَمْحَمَةً، وتارةً إشاراتٍ وَحركاتٍ حتى أدركَ ما أَعْنِيه.

فَحَمْحَمَ السيدُ الْجوادُ صاهلًا: «شَدَّ ما خَدَعَتْكَ نفْسُكَ فيما قرَّرتَه؛ فليسَ إلى فهمِ ما تقولُ من سبيلٍ!»

وأُحِبُّ أن يعلَمَ القارئُ أن لُغةَ الجيادِ الناطقةِ ليسَ فيها كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على الكَذِبِ أو التَّزْوِيرِ. ولهذا حَسِبَنِي الْجَوادُ مَخْدُوعًا، ولم يتَّهِمْني بالْكَذِبِ والتلفيقِ؛ لأن هذا المعْنى لا يَجُولُ بخَاطِرِه، ولا تَحْوِيهِ لُغَتُهُ!

وقد رأَى السيدُ الجوادُ أَنَّ منَ الْمُحالِ أن توجدَ — فيما وَراءَ البحرِ — أرضٌ أُخرى، وأنَّ الدُّنيا كلَّها تنحصرُ في الجزيرةِ التي يعيشُ فيها معَ قوْمِه: سادةً وأَعيانًا، لا تُرَدُّ لَهُمْ كلمةٌ، ولا يُعصَى لَهُم أمرٌ.

ولم يدُرْ بخَلَدِه قَطُّ أن من المعقولِ أن تتمكَّنَ جَمهرةٌ حقيرةُ الشأْنِ — منَ الدوابِّ الإِنسانيةِ — من بناء سفينةٍ كبيرةٍ منَ الخشب يَمخُرون بها عُبابَ البحرِ، وَفْقَ ما يريدُونَ.

ثم ختمَ حَمْحَمَتَه صاهلًا: «إننا معشرَ الجِيادِ قادرونَ على مثل ذلك، ولكنْ على شَرِيطةِ ألَّا نعهَدَ إِلى أحدٍ منْ دَوَابِّ «الياهُو» أن يُسَيِّرَها. وقد كنتُ أظنُّ أننا وَحدَنا قدِ اسْتَأْثَرْنا بهذه المزَايا الطبيعيةِ، وأن أيَّ أحدٍ منَ الدَّوابِّ — أمثالِكم — لا يَشْرَكُنا في شيءٍ منها.»

فَحَمْحَمْتُ للسيد الجوادِ صاهلًا: «ما زِلْتُ قاصِرًا عنِ التعبيرِ والإجابةِ عن كلِّ ما يطلُبه سيِّدِي — في دِقَّةٍ وتفصيلٍ — ولكنني آملُ أن أصلَ إلى تحقيقِ هذه الغايةِ في مَدًى قصيرٍ.»

(٤) بعد أشهرٍ خمسة

وقد ألْهبتُ السَّيِّدَ الجوادَ شوقًا إلى سَماعِ قصتي مفصَّلةً وافيةً، في وقتٍ قريبٍ. فأمر زوجتَهُ الفرسَ، وابْنَهُ المُهْرَ، وابْنَتَهُ المُهْرَةَ، وَخَدَمَه جميعًا، ألَّا يترُكوا فرصةً تمرُّ من غيرِ أنْ ينتهزُوها لتعليمي هذه اللغةَ. وكان لا يكتفِي بذلك؛ فخصَّني بساعتَيْنِ أو ثلاثٍ — في كلِّ يومٍ — ليتعهَّدَني هو نفسُه بالتعليم.

وكان يحضُرُ إلى المنزِلِ، في أغلبِ الأَحْيانِ، بعضُ الأفراسِ الكريمةِ، من ذُكورٍ وإناثٍ؛ يَحْفِزُهُم الشَّوْقُ إلى رؤيةِ «الياهُو» العجيبِ، الذي سمعوا من أخبارِه ما أَدهَشَهُمْ، وحيّر ألبابَهم، وهم لا يكادُون يُصدِّقُون ما سمِعُوه، ولا يَتَصَوَّرُون أَن دابةً إنسانيةً مثلي لها — من مَخايِلِ العقلِ ودلائِلِ المعرفةِ — مثلُ ما لهُم!

وكانت وجُوهُهم تنطلِقُ بِشْرًا وابْتهاجًا، كُلَّما أجبتُهم عن سؤالٍ يوجِّهونه إليّ، جَهْدَ ما أستطيعُ. وقد أكسبَتْني هذه المُناقَشاتُ قوةً، في اللغةِ، ومَرانةً عليها؛ فلم تَمْضِ خمسةُ أشهرٍ حتى أصبحتُ قادرًا على فهمِ كلِّ ما يَتفوّهُون به، وكنتُ موفّقًا في الإجابةِ عن أكثرِ أسئلتِهم، فتهافتَ على دارِ السيدِ كثيرٌ من أصحابِه الجِيادِ الراغِبينَ في مُحادَثَتِي وحِوارِي. وقد ساوَرهُمُ الشكُّ في أمري، فلم يصدِّقوا أنني «ياهُو» حقًّا؛ لأن بَشرَتي تختلفُ الِاخْتِلافَ كُلَّهُ عَنْ جُلُودِ تِلْكَ الدَّوابِّ، ولأنني لا أُشْبِهُها فيما عدا الوجهَ واليديْنِ.

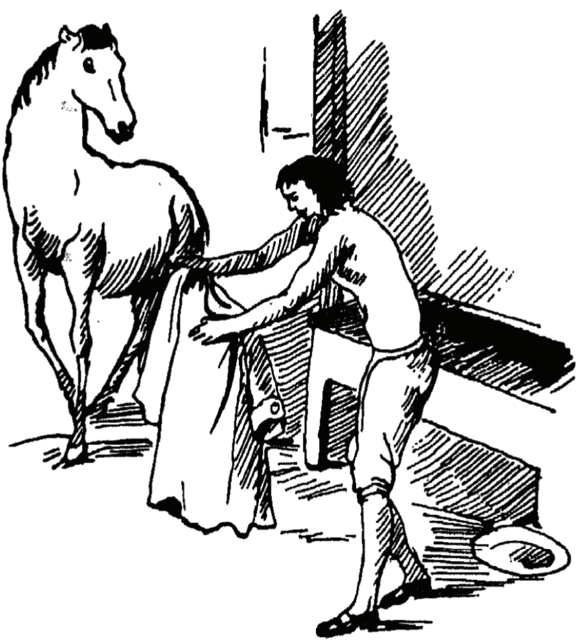
(٥) افتضاحُ السِّرِّ

وظَلَّ السَّادةُ الجِيادُ حائرِينَ في أمرِي، وهم يحسَبون أن ثيابي ليست إلاَّ جزءًا طبيعيًّا من جسمي. ثم افْتَضَحَ السرُّ بعد أَنْ وقع لي حادثٌ — لم يكُنْ في حُسباني — أَرْغَمَني عَلَى الْإِفضاءِ بحقيقةِ أمري إِلَى السَّيِّدِ الْجَوادِ. وإنِّي مُوجِزُه للقارئ فيما يَلِي:

> لقد أسلفتُ القولَ: إنني كنتُ لا أنزِعُ ثيابي عن جَسَدِي — كلَّ ليلةٍ — إلَّا بعدَ أن أَستوثِقَ من نومِ كلِّ من في الدارِ، فإذا تمَّ ذلك غَطّيتُ جسدي بتلك الثياب. وظَلَلْتُ على ذلك شهورًا عِدّةً، ثم حدث ما لم يكُنْ في الحُسبانِ. فقد بعثَ السيدُ إليّ — في ذاتِ صباحٍ باكرٍ — بخادمِهِ الجوادِ الأَشقرِ الصغيرِ. ولما وصل الخادمُ إلى حُجْرَتِي، دخلَها من غيرِ أن أفْطنَ إلى حُضورِه؛ فقد كنتُ مستغرقًا في النومِ،

وكانتِ الثيابُ قد سقطتْ عن جسدِي — في أثناءِ النومِ — وكان قَمِيصِي مرفوعًا. فلمَّا اسْتَيْقَظْتُ على أَثَرِ الضَّجَّةِ التي أَحدثَها الجوادُ، بَدَا الارْتباكُ والقلقُ على سِيماهُ. ثم عاد إلى سَيِّدِه، فَقَصَّ عليه ما رآه، وهو لا يكاد يُبِينُ لِاخْتِلاطِ الْأَمرِ عليه.

وقد رأَيتُ أَثرَ الحادثِ في نفس السيدِ، حين ذهبتُ إليه لِأُحَيِّيَهُ وأَتَلَقَّى أَوامرَه. فَبَدَأَني بالسؤالِ عمَّا سَمِعَه من خادمهِ، وأَخبرنِي أَن الخادِمَ قد أَدْهَشَه أن يراني في صورتَيْن مُخْتَلِفَتَيْنِ أَشدَّ الِاختلافِ، في يَقَظَتِي ومَنامِي؛ لأَنه رأَى أَجزاءً بِيضًا من جسمي، ورأَى أَجزاءً أُخرى سُمْرًا وَقاتِمَةً.



وكنتُ — إلى هذه اللحظةِ — أُخفِي سِرِّي عن السيدِ وغيرِه منَ الجِيادِ؛ حتى لا أُسْلَكَ في زُمْرةِ الأَناسِيِّ الجُبَناءِ المَمْقوتين. ولكني اضطُررتُ إلى الإِفضاءِ بحقيقةِ أمري — على الرغْمِ مني — بعدَ أَنِ افْتَضَح السرُّ.

وكان من الطبيعيِّ المحتومِ أن تظهرَ الحقيقةُ التي حاوَلْتُ إخفاءَها جُهْدي؛ فقد بدأ البِلَى يَدِبُّ إلى حذائي وثيابي — من طُولِ الاِسْتِعْمالِ — ولم يكُنْ لي بُدٌّ مِنَ الاِستِعاضةِ عنها بأُخرى من جِلْدِ «الياهُو»، أو غيرِه من الدوابِّ. وكان ذلك كلُّه مُؤْذِنًا بافْتضاحِ السرِّ بعد زمنٍ قليلٍ.

وقدِ اضْطُرِرتُ — حينئذٍ — أن أُخبرَ السيدَ أن من عادتي، وعادةِ أبناءِ جنسي — من الآدَميِّينَ — أن يُغَطُّوا أجسادَهم بثيابٍ يصنعونها من صُوفِ بعض الدوابِّ، بأسلوبٍ فَنِّيٍّ يحذِقُه النُّسَّاجُ عندَنا؛ ليستُرُوا بها أجسادَهم عنِ الْأَنظارِ، ويَتَّقُوا وَطْأَةَ الحَرِّ والبَرْدِ.

فتعاظَمتْه الدهشةُ، واسْتَوْلَتْ عليه الحيرةُ مما سمع؛ لأنه لم يكنْ يظُنُّ أن أحدًا من المخلوقاتِ في حاجةٍ إلى ارتداء إهابٍ صِناعيٍّ غير إهابِه (جِلْدِهِ) الطبيعيِّ الذي وهبه الله إيّاهُ.

وأردتُ أن أُقنِعَه بصِحَّةِ ما أقولُ؛ فرفعتُ شيئًا من ثيابي، وخلعتُ حذائي وجَوْرَبي؛ فدَهِش حينَ رأى بَياضَ صَدْرِي وقَدَمِي، وأمسك ثيابي بسُنْبُكِه، وظَلَّ يُنْعِمُ النظرَ ويُمْعِنُ الفكرَ فيما يراه، ثم يَلْمسُ جسدي، ويدورُ حولِي — حينًا فَحِينًا — وهو لا يكادُ يصدِّقُ بصرَه فيما يُخبرُه به، وبعدَ افتكارٍ طويلٍ، الْتَفَتَ إِليّ السيِّدُ، وحَمْحَمَ صاهلًا في احْترامٍ وأدبٍ وإعجابٍ: «لستُ أشُكُّ في أنك «ياهُو»؛ لأنني لا أرى فَرْقًا جَوْهرِيًّا بينَك وبينَه؛ فالْجِسْمانِ مُتَماثِلانِ، والوجهُ والقَدَمانِ لا تختلفُ عنه إلَّا اخْتلافًا يسيرًا، فإنَّ الشعرَ كثيفٌ مُرْسَلٌ على جَسَدِ «الياهُو»، ولا كذلك جَسدُكَ، لأن أَغْلَبَه لا يُغطِّيه الشعرُ. وأسنانُك قصيرةٌ جدًّا، على الْعَكسِ مِنْ أَنْيابِ «الْياهُو» الطويلةِ. وأَنتَ تمشِي على قدمَيْنِ اثْنَتَيْنِ، على حينِ يمشِي «الياهُو» على أَرْبَعٍ.»

ورآني السَّيِّدُ — حينئِذٍ — أَرتَجِفُ منَ الْبَرْدِ؛ فرثَى لِحالِي، وأَمرني أَن أَرتديَ ثيابي، حتى لا يُصيبَني سُوءٌ.

فشكرتُ له عطفَه عليَّ، وبِرَّه بي، ثم ضَرَعْتُ إليه متوسِّلًا أَن يُعْفِيَني من إطلاقِ اسْمِ «الياهُو» عليّ، وأَظهرتُ له تَقَزُّزِي وارْتِياعِي وسُخْطِي على هذه الدوابِّ الخبيثةِ، التي تتجلَّى فيها الفَظاظةُ والغِلْظَةُ واللُّؤْمُ، وأَقسمتُ عليه أَن يكُفَّ عن هذه التسميةِ المُفَزِّعةِ، وأَن يأمرَ أُسْرتَه وخدمَه وأَصدقاءَه أَن يُعفُوني من سَماعِ هذا الاِسْمِ البغيضِ المَمْقوتِ. ثم خَتَمتُ رجائي برجاءٍ آخرَ، هو أَن يحتفِظَ بسِرِّي هذا، فلا يُفْضِي إلى أَحدٍ من السَّادةِ

الجِيادِ وخَدَمِهم بما عَرَفه عن ثيابي وحقيقةِ أَمري، في ذلك اليوم. واسْتَحْلفتُه أَن يأمرَ خادمَه الصغيرَ بِكتْمانِ السرِّ عن أَيِّ كائنٍ كان.

فتفضل السيدُ الجوادُ بقَبولِ هذا الرَّجاءِ كُلِّهِ، وتلطّف معي، فَوَعَدنِي — في وَداعةٍ وأَدبٍ — أَن يَظَلَّ سِرِّي مَكْتُومًا كما طلبتُ.

وما زال سِرِّي مَحْجوبًا حتى خَلُقَتْ ثيابي، وأصبحتْ أَسْمَالًا باليةً؛ فاسْتبدَلْتُ بها ثيابًا أُخرى، سأُحدِّثُ القارئَ عنها فيما بعدُ.

(٦) سَفِينَةُ «جلفر»

وقد شاقَ السيدَ الجوادَ مني هذا الحديثُ الطريفُ؛ فنصحَ لي بالْمُثابرةِ والجِدِّ في دَرْسِ لغتِه الصَّاهلةِ. وأَنساه ما رآه من أصالةِ رأْيي، وَرَجاحةِ فِكْرِي: اشمئزازَهُ من بياضِ بَشَرتي، وعُرْيِها منَ الشَّعرِ الذي يُجَلِّلُ أجسامَ الْجِيادِ. وقدِ اشْتدّتْ رغبتُه في أن أُجيبَ عنْ أسئلتِه الْأُخرى، التي يَعْنِيه أن يقِفَ على الحقيقةِ فيها؛ فوعدتُه بالتبسُّطِ معه في الحديثِ والشرحِ فيما بعدُ.

وظللْتُ أُضاعفُ الجُهدَ في مواصلةِ الْحِفْظِ والدَّرسِ، وصارَ يصحَبُني معه في غُدُوِّهِ وَرَواحِه، ويُعرِّفُني بأصحابِه ورِفاقِه، ويعاملُني مُعاملَة الصديقِ، ويحترمُني، ولا يَأْلُو جهدًا في رِعايتِي وإكرامِ وِفادتي، حتى يُسَرِّيَ عني، ويُؤْنِسَني من وَحْشَتِي، ويُزيلَ هَمِّي.

وكان يُكثِرُ من سُؤالي عما يَعِنُّ له من الْمسائلِ التي تَشْغَلُ بالَه، وأَنا أُجيبهُ، على قَدْرِ ما أستطيعُ. وكان يفهمُ أكثرَ حدِيثي فهمًا ناقصًا، وأَنا أَعِدُهُ بِمُواصلةِ الشَّرحِ في القريبِ العاجلِ؛ حتى أَسْعَفَتْني اللغةُ، وأَمْكنني الدَّرسُ من الْإِفْضاءِ إليه بالحقائقِ التاليةِ: «جئتُ من بلادٍ بعيدةٍ جدًّا، وكان معي في رِحلتي خمسُونَ رجلًا — من أبناءِ جنسي — في سفينةٍ بَنَيْناها من الْخَشبِ، واجْتَزْنا بها ذلك الْبحرَ الواسعَ الْعظيمَ.»

ثم صوَّرتُ له السفينةَ — جُهْدَ طاقَتِي — ونشرتُ أمامَه مِنديلي؛ لأُمثِّلَ له صُورةَ الشِّراعِ، وأُصَوِّرَ لهُ كيف تَدْفعُه الريحُ، فَيُزْجِي السفينةَ.

ثم شرحتُ له كيف ائْتَمَر أَصْحابي — في السفينةِ — بي، وكيفَ انْتَهَتْ مُؤامرتُهم بإِلْقائي إِلى شاطئِ هذه البلادِ، حتى لقيَتْني شِرْذِمَةٌ شِرِّيرةٌ من «الْياهُو»، وكيف هَمُّوا أن يَبْطُشُوا بي، لوْلا مقدَمُ السيد النبيلِ

فسألني مُتعجِّبًا: «ومَنِ الذي بَنى السفينةَ؟ وكيف سَمَحَ السادةُ الْجِيادُ — في بلادِكم — أن يُسْلِموا قِيادتَها إلى تلكَ الدَّوَابِّ الإنسانيةِ الشرِّيرةِ؟»

فَحَمْحَمْتُ صاهلًا: «ليس في قدرتي أن أُكاشِفَكَ بالْحَقيقةِ، إلَّا إذا أقسمتَ لي بِشَرَفِك أَلَّا تألَمَ لما أُخبِرُك به، فإِني أخشَى أن يَتملَّكَ نفسَك الغضبُ إذا أَفْضَيْتُ إليك بالصحيحِ، فإذا عاهَدْتَني على ذلك لم أتردَّدْ في إخبارِك بكلِّ ما وَعدْتُكَ به منَ الحقائق.»

فحمحمَ السيدُ الجوادُ صاهلًا: «كُنْ على ثقةٍ أنني لن أَغضَبَ من شيءٍ، ولا يُخامِرْك في عَهْدِي أيُّ شكٍّ؛ فإنني لا أَتوخَّى غيرَ الْمَعْرِفَةِ. فحَدِّثني بكلِّ ما تعلَمُ.»

فقلتُ له: «الآن اطْمَأْننتُ إلى وَعدِك الكريم، فاعْلَمْ — يا سَيدي — أن الذين بَنَوْا تلكَ السفينةَ إنما هم أَناسِيُّ مثلِي، وأن هؤلاءِ الأناسِيَّ — في بلادِ الْعالمِ قاطِبةً — هُم السادةُ العقلاءُ الذين يُهَيْمِنُون على جميع المخلوقاتِ، ويُسَخِّرون الدوابَّ كلَّها لِخِدْمتِهم، وأن الحيرةَ قد اسْتَوْلَتْ عليّ حين رأَيتُ — أولَ مرةٍ في حياتي — جيادًا عاقلةً متكلمةً. ولم تكُنْ دَهْشَتي من ذلك بأقلَّ من دهشتِك ودهشةِ أصحابِك من رؤيةِ دابَّةٍ مثْلي من دوابِّ «الياهُو» — في بلادِكم — تنطِقُ وتُبِينُ عن أَغراضِها. واعْلَمْ — يا سَيِّدي — أن الناسَ في بلادي لن يصدِّقُوا ما أقصُّه عليهم من أنبائِكم؛ لأنهم لن يستطيعوا أن يَتَصَوَّروا أن جِيادًا تَعْقِلُ وتتكلمُ. وسيتَّهِمُني الناسُ بأنني أَرْوِي لهم قصةً خياليةً لا أصلَ لها، ولن يصدِّقَ أحدٌ مِنْهُمْ أنَّ منَ الجيادِ ما يعقِلُ ويفكرُ ويتكلمُ، ويُتوَّجُ سَيِّدًا على بلدٍ، ويُهَيْمِنُ على غيرِه من الدوابِّ؛ لأَنهم لا يتصوَّرُون الجوادَ إلا دابةً منَ الدوابِّ التي لا تعقِلُ ولا تنطِقُ.»

الفصل الرابع

(١) الصحيحُ والكذبُ

كان السيِّدُ يُنْصِتُ إلى حديثي وهو حائرٌ مُرتبكٌ أشدَّ الحَيْرَةِ والاِرتباكِ. ولم يكُنْ من عادتِه الشكُّ فيما يسمعُه؛ لأَن الجيادَ لا يُخْبِرون بغيرِ الصحيح، ولا تدورُ بأخلادِهم تلك الأَكاذيبُ التي أَلِفْناها، مَعْشَرَ الناسِ. ولكنه لم يكُنْ يدرِي كيف يصدِّقُ ما يسمَعُه، وهو غريبٌ لا سبيلَ إلى تصوُّرِه وفهمِهِ. ولم تألَفِ الْجِيادُ هذه المَرانةَ العقليةَ التي تُمكِّنُنا مِنَ الاِرْتيابِ والشكِّ فيما نسمعُ؛ لأَن هذه الْمَزِيَّةَ وَقْفٌ على النوع الإنسانيِّ وحدَهُ، وليس يَشْرَكُهُ في هذه المِيزَةِ أحدٌ من أَجناسِ الحيوانِ الأخرى.

ولقد لَقِيتُ من أَلْوانِ العَناءِ والجهدِ شيئًا كثيرًا، حين كنتُ أحدِّثُه عن صِفاتِ النوعِ الإنسانيِّ، الذي يعيشُ فيما وراءَ جزيرَتِهِ النائيةِ.

وكان السيدُ الجوادُ يمتازُ بذكاءٍ نادرٍ، وفِطْنةٍ عجيبةٍ، في فهم ما أُحَدِّثُه به، ولكنه — على ذكائه وفِطْنتِه — لم يستطِعْ أن يفهمَ ما أَعْنِيه بكلمتَي: كَذِبٍ وغِشٍّ، إلَّا بعدَ حِوارٍ طويلٍ، وأَمثلةٍ كثيرةٍ!

وكان يُحَمْحِمُ صاهلًا: «لقد خُصِصْنا بمَوْهبةِ الكلامِ؛ ليمتازَ الواحدُ منا على الآخَرِ، بفَضْلِ ما يُبْدِيهِ منَ الحكمةِ وأَصالةِ الرأيِ، والإِبانةِ عَمَّا يفكِّر فيه، والإِفادةِ مما يسمعُه، فيُضيف إلَى ما يَعْلَمُهُ مَعارِفَ أُخْرَى. فإذا تحدَّث إنسانٌ في غيرِ هذا البابِ، وقرَّر شيئًا لم يَحدُثْ، خالَفَ الفِطْرةَ، وتنكَّبَ الجادَّةَ، وآثر الطريقَ الْمُلْتَوِيَ الأعوجَ على الطريقِ السَّوِيِّ المستقيم؛ لأنه يعكسُ الآيةَ، فيُضِلُّ سامعَه بدلًا من أن يَهْدِيَهُ، ويُمَوِّهُ عليه بدلًا من أن

يُرشدَهُ. ولا يكتفِي بأنْ يحرِمَه المعرِفةَ ويترُكَه في جَهالتِه، بل هو يُمعِنُ في الإِساءةِ فينقُلُه إلى حالٍ شرٍّ منَ الجهلِ؛ لأنه يُزْجِي إليه معارفَ مُزَوَّرةً وحقائقَ مقلوبةً، إذ يُدْخِلُ في رُوعِه أن الأبيضَ أسودُ، وأنَّ القصيرَ طويلٌ!»

وعندي أنّ رأيَ الجيادِ — في الصحيحِ والكذبِ — رأيٌ واضحٌ، لا يَمْترِي في أَصالَتِه أحدٌ منَ الناسِ، ولا يحتاجُ إلى شرحٍ وَلا تعليقٍ.

(٢) حديثٌ عن الجيادِ

ثم ساقنا الْحِوارُ إلى ما بَدَأْناهُ من حديثِ الجيادِ والناسِ. وقد أكَّدتُ للسَّيدِ الجوادِ أن «الياهُو» في بلادِنا هو أشرفُ الدوابِّ ووليُّ أمرِها، وهو الحاكم المطلَقُ، والسيِّدُ الآمِرُ المُطاعُ، الذي لا يُرَدُّ له أمرٌ.

وقدِ اعْترف لي — حين سَمِعَ هذا الكلامَ — أن إدْراكَه لا يستطيعُ أن يصلَ إلى فهمِ هذه الْألغازِ التي أُحَدِّثُه بها.

ثمَّ صَهِلَ يَسْأَلُني مُتَعَجِّبًا: «أليسَ في بلادِكم جيادٌ مِثلُنا يَحكُمونكُمْ؟ وماذا تعملُ الْجِيادُ عندَكم؟ أَتَتْركُ لكمُ الحبلَ على الغاربِ، ولا تُعْنَى بأُمورِكم، ولا تُرشِدُكم إلى سَواءِ السبيلِ؟» فحمحمتُ صاهلًا: «إن في بلادِنا جمهرةً كبيرةً منَ الجِيادِ. وهي تقضِي فصلَ الصيفِ في المَرابعِ والحقول والمُروجِ، وتقضِي فصلَ الشتاءِ في دُورِنا ومنازِلِنا. وقد وَقَفْنَا على خِدْمتِها والعنايةِ بأمرِها جماعةً منَ «الياهُو»؛ يتعهَّدُونها بالنظافةِ، ويُقدِّمُون لها حاجتَها منَ الطعامِ، ويُرَجِّلُون شَعَرَها، ويَدْلُكون جِلْدَها، ويغسِلُون أقدامَها، ويُعِدُّون لها فُرُشَها، ويُعْنَوْنَ بأمرِها العنايةَ كلَّها.» فحمحم السيدُ الجوادُ صاهلًا: «إني أفهمُ ذلك كلَّهُ، وقد فهِمتُ من حديثِك أنكم — معشرَ «الياهُو» — في بلادِكم على شيءٍ منَ الإِدراكِ والعقلِ، يُبيحُ لكم أن تتَّصِلوا بالجياد، وتقُوموا بما يَطلُبونه منكم من خدمةٍ. وقد أدركتُ الآن أنني لم أُخطِئِ الرأيَ فيما ذهبتُ إليه من أن الجيادَ سادتُكم، وأُولُو الأمرِ فيكم. وليس لي من رجاءٍ إلا أن يكونَ خُضُوعُكم لَهُم في بلادِكم مثلَ خضوعِ «الياهُو» لنا في بلادِنا!»

فلم أَدْرِ: كيف أقولُ؟ وبماذا أُجِيبُه؟ وآثرتُ الصمتَ؛ حتى لا أُغْضِبَهُ إذا وقفتُه على الصحيحِ. وسألتُه أن يُعْفِيَني منَ الإجابةِ؛ لأن الحقيقةَ لا بدَّ أن تؤلِمَه وتُزْعِجَه. فحمحم

الجوادُ صاهلًا: «قُلِ الحقَّ، ولا تَخْشَ شيئًا؛ فليس يَعْنِينِي إلَّا أن أعرفَ الصحيحَ، ولن يُغضبَني شيءٌ مما تقول.»



فأجبتُه صاهلًا: «ما دُمْتَ تُلِحُّ عليَّ في ذلك. وتأبَى إلَّا أن أُفْضِيَ إليك بكل شيءٍ، فليس في قُدرتي أن أَعْصِيَ لك أمرًا: إنَّ الجيادَ الأصيلةَ في بلادِنا — يا سيدي — تُعَدُّ من أجملِ الدوابِّ وأنبلِها، وهي مشهورةٌ بقوةِ الجسمِ وسرعةِ العَدْوِ. والعظماءُ عندَنا يتسابقُون إلى اقْتِنائها، ويُعْنَوْن بأمرِها، ولا يُرْهِقُونَها. فهي تقضِي أيامَها في السِّياحِة، أو السِّباقِ، أو جرِّ المَرْكَباتِ. ولا تزالُ الجيادُ النبيلةُ تَلْقَى الْكَثيرَ من عنايةِ الكُبَراءِ والْأَعيانِ ورِعايتِهِم، ما دامتْ فَتِيَّةً قويةً موفورةَ الصحةِ. حتى إذا أدركها الوَهَنُ، أو أَعْجَزَتْها الشَّيخوخةُ، بادَرُوا إلى التَّخلُّصِ منها، وقرَّرُوا أن يَبِيعُوها — في السُّوقِ — إلى غيرِهم منَ «الياهُو»؛ ليستخدِمُوها في أعمالِهمُ الشاقةِ المضنِيةِ، حتى يُدرِكَها الموتُ؛ فَيَسلَخُوا جِلْدَها ليبِيعُوهُ، ويَتْرُكوا جُثَّتَها طعامًا للكلابِ والطيورِ الجارحةِ. هذا ما تلقاه الجيادُ النبيلةُ الكريمةُ الأَعْراقِ في بلادِنا. أما الجيادُ الهجِينةُ الْمُنْحَطَّةُ، فليس لها حظٌّ منَ الرعايةِ والعنايةِ؛ فَإِنّ سادَتَها — من السَّائِقِينَ والزَّارِعينَ ومَنْ إليهم من أَخْلاطِ الشعبِ وجَمْهَرةِ الْأَوْشابِ — يُحَمِّلُونها ما لا تُطيقُ من أَحْمالٍ، ويُكلِّفونها نقلَ ما تَنُوءُ به من أَثقالٍ، ويقدِّمون لَها طعامًا تافِهًا حقيرًا، لا يُقِيمُ أَوَدَها، ولا يساعدُها على الاضْطِلاعِ بِالأعباءِ الْمُرْهقةِ التي يُرغِمونها على أَدائِها.»

ثم شرحتُ له ما أَعلمُه من طرائِقِنا وأَساليبِنا في رُكوبِ الخيلِ، وكيف أَعْدَدْنا السَّرْجَ واللِّجامَ لرُكوبِها، وأَوضحتُ له كيف نُسْرِجُها ونُلْجِمُها. ووصفتُ له المِهمازَ والسَّوْطَ، وكيف نَهمِزُها ونُلْهِبُها ضربًا بالسِّياطِ، إذا وَنَتْ في عَدْوِها أَو تراخَتْ، وكيف صنعْنا لحوافِرِها نِعالًا غايةً في الصَّلابة، من مادَّةٍ تُسمَّى الحديدَ؛ لتحفَظَ سَنابِكَها من التَّلَفِ، وَتقِيَها الْأخطارَ والكَسْرَ في الطرقِ الصَّخْرِيّةِ الصُّلْبَةِ التي عَبَّدناها لتُسَهِّلَ لنا أَسبابَ التَّجوالِ والسفرِ.

(٣) سُخْطُ الجوادِ الناطق

وكان السيدُ الجوادُ يُنصِتُ إلى حديثي متألِّمًا حانِقًا. وقد حاول أَنْ يُخْفِيَ حُزْنَه وكَمَدَه عني؛ فلم يَسْتَطِعْ إلى ذلك سبيلًا، ولم يتمالكْ أن كاشَفَنِي باشْمِئْزَازِه واحْتِقارِه، ثم حَمْحَمَ مدهوشًا متعجبًا: «كيف اسْتطعتُم أن تُذلِّلوا تلك الجيادَ، وَتَعْتَلُوا مُتُونَها، ولستُ أَرْتابُ أن أضعفَ جوادٍ من جيادِنا أقوى من أَوْفَرِكُم شجاعةً وأَشدِّكم بَأْسًا، ولن يُعْجِزَ الجوادَ — إذا لم يستطِعْ أن يسحقَكم بأقدامه — أن يَتَدَحْرَجَ براكِبِه على الأرضِ؛ فَيَسْحقَه سحقًا، ويَهْرِسَه هَرْسًا؟»

فحمحمتُ صاهلًا: «إن الجِيادَ — في بلادِنا — مُذَلَّلَةٌ لَنَا مُرَوَّضَةٌ. ونحنُ نُعَوِّدُها — متى بَلَغَتِ الثالثةَ أو الرابعةَ من عُمْرِها — الخضوعَ والطاعةَ، ونُدرِّبُها على أَداءِ الْأَعمالِ التي نختارُها لها، ونَفْرِضُها عليها. فإذا أظهر بعضُها تَبَلُّدًا أو عجزًا اسْتخدمناه في جَرِّ المَرْكَباتِ، وأَلْهَبْنا جِسمَه بالسِّياطِ — منذُ حَداثَتِه — حتى نُرَوضَه، ونُصْلحَ عَيْبَهُ، ونقوِّمَ زَيْغَه. واعْلَمْ — يا سيدي — أن الجيادَ التي نختارُها لرُكوبِنا وجَرِّ مَرْكَباتِنا، نَفْصِلُها — في عامِها الثاني — عن أُمَّاتِها؛ ليَسْهُلَ علينا تَذْلِيلُها ورِياضَتُها. وهيَ تَلْقَى نصيبَها من حُسْنِ المكافأةِ، أو سُوءِ الجزاءِ، في حالَيِ الطاعةِ والعِصْيانِ. وأُحِبُّ أن يعلمَ سَيِّدِيَ الجوادُ: أن الجِيادَ في بلادِنا غيرُ الجِياد في بلادِه؛ لأن جيادَنا ليس في رُءُوسِها ذَرَّةٌ منَ الإِدراكِ والْعَقلِ، وهي — في غَبائِها وبَهِيمِيَّتِها — أَشبهُ حيوانٍ بـ«الياهُو» في بلادِهِ!»

وقد كَلَّفني الإعرابُ عن هذه الحقائقِ — للسيدِ الجوادِ — كثيرًا منَ اللَّباقةِ والجهدِ؛ فإن تلك اللغةَ الصاهلةَ ليست — مثلَ لُغاتِنا — غَنِيَّةً بالْأَلْفاظِ؛ لأن حاجاتِ أَصْحابِها ومُحاوَراتِهم قليلةٌ محدودةٌ، وأَغراضَهم سهلةٌ ميسورة، لا تُلْجِئُهُمْ إلى افْتنانٍ في الأَداءِ، وبلاغةٍ في البَيانِ.

ولا أكتمُ أنني عاجزٌ العجزَ كلَّهُ عن وَصفِ أماراتِ الغضبِ النبيلِ، التي ارْتَسمتْ على أساريرِ السيدِ الجوادِ، حين أَفضيتُ إليه بتلك الْمُعاملةِ الْقاسيةِ الوحشيّةِ التي يلْقاها الجِيادُ في بلادِنا.

ومنَ الْمُحالِ عليَّ أن أُصَوِّرَ للقارئ سُخطَ السيدِ الجوادِ وحَنَقَهُ علينا — مَعْشَرَ الأَناسِيِّ — حين سمِعَ منِّي أننا نَفْصِلُ أحدْاَثَ الجيادِ عن أُمَّاتِها، ونَحْرِمُها عَطْفَها عليها وأُنْسَها بها، لِنُسَخِّرَها في أَداءِ أَعْمالنا.

(٤) فضلُ العقلِ

ولم يُمارِني السيِّدُ الجَوادُ في فضلِ الْعقلِ. وقد أَقَرَّني على أنّ له الْمكانَ الأولَ، وأن الكائنَ العاقلَ الرشيدَ يُصْبِحُ — حيثُما حلَّ — سيِّدَ الدوابِّ الأُخرى التي حُرِمتْ نِعْمَةَ الْعقلِ، وهو لا بُدَّ مُتغلِّبٌ عليها — عاجِلًا أو آجِلًا — بذكائِه، وحُسْنِ حيلتِه، وسَدادِ رأْيِه.

ولكنه رأَى — إلى ذلك — أن جِسْمِي مهزولٌ، ضعيفُ البِنْيةِ، ولم يكُنْ يدورُ في خَلَدِه قَطُّ أنَّ مخلوقًا — في مِثْلِ هذا الحجْم الصغيرِ — يمكنُ أن تُوجَدَ في رأْسِه مُسْكَةٌ منَ الْعقلِ، تَهْدِيهِ إلى فَهْمِ أبسَطِ بَسائطِ الْحياةِ.

(٥) مُلاحظاتُ الْجَوادِ

ثُمّ سَأَلَني صاهلًا: «ألا تَرَى أن «الْياهُو» — في بلادِنا — يماثِلُك، أو يماثِلُ «الْياهُو» في بلدِك الذي حدَّثْتَني عنه؟»



فأجبتُه مُحَمْحمًا: «إن تكوينَ جسْمي وبِنيَتَه، خيرٌ من كثيرٍ من أقراني منَ «الْياهُو» في بلادِنا، ممن هم في مثْلِ سني. ولكن «الْياهُو» الذينَ هم أقلُّ مني سنًّا — سواءٌ أكانوا ذُكورًا أم إناثًا — لهم بَشرَةٌ أرَقُّ مني، وأكثرُ نُعُومَة، لا سِيَّما النِّسَاءُ.»

فقالَ لي صاهلًا: «لا أُنكِرُ عليك أنّ بينكَ وبينَ دوابِّ «الْياهُو» — التي في حظائرِ الدَّجاج عندَنا — شيئًا من التَّخالُفِ؛ فأنتَ أَنظفُ منها، وأَقلُّ بشاعةً ودَمامةً، ولكنها — على ذلك — أَقوى منك، فيما أظُنُّ، وأشدُّ بأسًا. أما أَظافِرُك، فلسْتُ أَراها تَصْلُحُ لعملٍ مًّا. وأما قائِمَتاكَ الأماميّتانِ فَما أراهُما جدِيرَتَيْنِ بهذه التَّسْمِيَةِ؛ لِأَنَّهُما لا تُعِينان عَلَى الْمَشْيِ. وما رَأيتُك — مُنذُ حَلَلْتَ عندَنا — تَمشِي عليهما. وهُما منَ الضعفِ والرِّقَّةِ بحيثُ لا تقوَيانِ على مَسِّ الأرضِ، بَلْهَ الاحْتِكاكَ بها. وقد رأيتُك تتركهُما عارِيَتَيْنِ في أكثرِ الأحايينِ، وتغطِّيهما أحيانًا بِقِطْعَةٍ مِنَ الثِّيابِ تُغايِرُ لَوْنَ جِسْمِك. أَما قائمتاك الخلفيّتانِ اللَّتانِ تمشِي عليهما، فهما — كذلك — ليْسَتا منَ القوَّةِ والصَّلاحيةِ، بحيث تُؤْمِنانِ صاحبَهما الْعِثارَ والزَّلَلَ، وما أَيسرَ أن تَنْزَلِقَا، فتهويِا بك إلى الأرض.»

واسْتَرْسَلَ السيدُ في مُلاحَظاتِه على سائرِ أجزاء جِسْمي؛ فلم يترِكْ شيئًا إلَّا انْتَقَدهُ وهَجَّنَه؛ لَمْ يُعْجِبْه وَجهي ورأَى أنهْ مُنْبَسِطٌ، كما رأى النُّتوءَ باديًا في أنْفِي، فانْتَقَدَهُ. وأخذ عليَّ اقترابَ إحدى عَيْنَيّ منَ الْأخَرى، وقال لي: «إنهما — لقُرْبِهما — تَكادان تلتصِقانِ؛ فلا تُيَسِّرانِ لَكَ أَنْ تنظُرَ — يَمْنَةً ويَسْرَةً — إلَّا إذا أَدرْتَ رأْسَك كلَّه. وليسَ في قُدرتِك أَن

تأكلَ طعامَك ما لم تَسْتعِنْ برِجْلَيْك الأماميَّتَيْنِ، لترفعَ الغذاء بهما إلى فِيكَ. ولعل هذا هُوَ السرُّ في هذه الْمفاصلِ الكثيرةِ التي أَراها في أطرافِ جسْمِك. ولستُ أَدري ما نَفْعُ هذه الأعضاءِ الصغيرةِ الْمُنفصِلةِ، التي أَراها في طَرَفَيْ رِجْلَيْك الخلفيَّتَيْنِ، وهي — فيما يبدُو لي — غايةٌ في الضَّعْفِ واللُّيونةِ. وليسَ لها قوةٌ على السَّيرِ فوقَ الصُّخورِ والْأَشْواكِ — إذا كانتْ عاريةً — فهِيَ في حاجةٍ دائمةٍ إلى غِطاءٍ تَصْنَعُونه من جِلدِ الدوابِّ الأخرى، لِيَقِيَها تلك الأخطارَ! أَما جِسْمُك فهو ضعيفٌ، لا يُطيقُ الْحرَّ والْبَرْدَ، إذا تَعرَّى ممَّا عليه منَ الثيابِ. وقد رأَيتُك ترْتَجِفُ منَ الْبَرْدِ، حين خلعتَ بعضَ ثيابِك أَمامي. فأنتَ لا تسْتغني عنِ ارْتِدَاءِ هذه الثِّياب، في جميع الأَيامِ. وَمنَ الْعجِيبِ الْمُدْهِشِ أن الدوابَّ في بلادي — على اخْتلافِ أجْناسِها — تَرهَبُ «الْياهُو» بطبعِها، وتَخْشاه، وتَلُوذُ بالْفِرَارِ حَيْثُمَا تَرَاه. وقد رأَيتُ أَن أَقوى حيوانٍ في بلادِنا يتحامَى «الْياهُو» جهدَه. وما أَدري كيفَ تعيشُون في هذه الدُّنيا وادِعين سالِمين، وليسَ فيها دابةٌ وَاحدةٌ تعطِفُ عليكم، وَلا تنْفرُ من لِقائكم؟ وماذا يُجْدِيكُمُ الْعقلُ — إذا سلَّمنا أَنكم قد ظَفِرْتم به حقًّا — ما دامتْ دَوابُّ الأَرضِ كلُّها تَمْقُتكم، ولا تُطيقُ رُؤيتَكم؟ فكيف تَتَّخِذون منها خدمًا، وهي تُضْمِرُ لكُم مثلَ هذا الْحِقْدِ والْكَرَاهِيَةِ؟»

ثم اسْتأنفَ صاهلًا: «حَسْبِي ما أَبْدَيْتُهُ لك منَ الْملاحَظات، وَلْنَدَعِ الْحديثَ الآن في هذا الأمرِ، ولْنُرْجِئْه إلى وقتٍ آخرَ؛ فإِنَّ بي لَشَوْقًا شديدًا إلى دَرْسِ أحْوالِك أنت، وإِلى تعرُّفِ مَسْقَطِ رأْسِك، ونَوْعِ مِهنتِك، ومُخْتَلِفِ الْأَحْداثِ التي حلَّتْ بك، قبلَ أن تَصِلَ إلى بلادِنا.»

(٦) قِصَّةُ «جلفر»

فأجبتُه مُحمحمًا: «إِنَّ بِي منَ الرغبةِ إلى إخبارِكَ بأَنبائي مِثْلَ ما بك — يا سيدي — منَ الرغبةِ في سَماعِها. وهي — بلا شَكٍّ — سَتُدْهِشُكَ إذا اسْتطعْتُ أَنْ أُبِينَ لكَ عنها. وما أنا بقادِرٍ على ذلك في وُضُوحٍ وجَلاء؛ لأنَّ أكثرَ ما أَقُصُّه عليك غريبٌ غيرُ مألوفٍ، وليس لِما أُخْبِرُكَ بِه مثيلٌ في بلادِك، فيما أرَى. وليسَ منَ اليسيرِ عليّ أن أُحَدِّثَك بأمورٍ لَمْ تمرَّ بك يومًا منَ الأيامِ، ولم تَخطُرْ لك — مرَّةً — على بالٍ. ومهما يكنْ مِنْ أمرٍ، فإِني باذلٌ جُهْدِي كلّه. ولنْ أتركَ وسيلةً من وَسائلِ التشبيهِ والاِسْتِعارةِ إلَّا سَلَكْتُها، لِتَوْضِيحِ ما أُريدُ. ولكنني أَلْتَمسُ من سَيِّدي أن يساعدَني على أَداءِ غَرَضي، كُلَّما أعوزَنِي الْأداءُ، وخَذَلَنِي التَّعبيرُ.»

فأجابني مُتلطِّفًا صاهلًا: «لك ما ترِيدُ، أيها الصاحبُ العزيز!»



فأَوجزتُ قصتي فيما يَلِي: «لقد وُلِدْتُ — يا سَيِّدي — من أبويْنِ شريفَيْنِ، في جزيرةٍ اسْمُها «إنجلترا». وهي بعيدةٌ عن بلادِكَ بُعْدًا شديدًا، ولن يصلَ إليها أقوى خدمِك قبل عامٍ كاملٍ. وقد تعلَّمتُ — أولَ أمري — مِهْنَةَ الْجِراحةِ، أيْ فَنَّ مُداوَاةِ الْجُروحِ ومُعالَجَتِها. وكانت تحكُم بلادي امرأةٌ من بناتِ جنْسِنا، نُطلِقُ عليها لَقَبَ «الْمَلِكَةِ». أما سببُ مُغادَرَتِي تلك البلادَ، فهو يَرجعُ إلى رَغْبتي في الْتماسِ الثَّروةِ، لأعُولَ بها نَفْسي وأُسرتي. وقد كنتُ — في رِحلتي الأخيرةِ — رُبَّانَ سفينةٍ كبيرةٍ، وكان تحتَ إمْرَتِي خَمسْونَ منَ «الْياهُو». وقد ماتَ أكثرُهم — في أثناءِ الطَّريقِ — لِسُوءِ الحظِّ؛ فاضْطُرِرْتُ إلى أن أَسْتَعِيضَ عنهم بجماعةٍ أُخْرَى غيرِهم، وقد أَحْضَرْتُهم من بلادٍ وأَجْناسٍ مُخْتلِفةٍ. وقد تَعرَّضَتْ سَفِينَتِي — خِلالَ هذهِ الرِّحلةِ — للغَرقِ مَرَّتَيْنِ؛ فقدْ كاد يُودِي بها — في المرةِ الأولَى — إعْصارٌ شديدٌ، وكادتْ — في المرةِ الثانيةِ — تتحطَّمُ على صَخْرَةٍ اصْطَدَمتْ بِها، وهي تَمخُرُ عُبابَ البحرِ.»

وهُنا قاطعنِي السَّيِّدُ، وسَأَلَنِي مُحَمْحِمًا: «كيفَ اسْتَطَعْتَ أنْ تَجْلبَ — في سَفِينَتِكَ — أفرادًا مُخْتَلِفي الأجْناسِ؟ ولماذا ارْتَضَوْا تَرْكَ بِلادِهم، والْمُجازَفَةَ معكَ في اقْتِحامِ الْأَخطارِ التي تعرَّضتَ لها، والْمُشارَكَةَ في الخسائِر التي تكَبّدْتَها؟»

فأجبتُه صاهِلًا: «لقد كانَ أُولئِك الرِّفاقُ يُعانُونَ مِنَ الْفاقَةِ والفقْرِ، ما يَضْطَرُّهُم إلى النُّزُوحِ عَنْ أوْطانِهم. فقدْ كانُوا لا يَجِدُون في بلادِهم قُوتًا ولا مأْوًى، وكان بَعضُهم فارًّا

مِنَ الْعَدالةِ حتَّى لا يتعرَّضَ لِلْقِصاصِ. وكان آخَرُون منهم قد خَسِروا كلَّ ما يملِكُونَ، من جَرَّاءِ مُنازَعاتِهم وطُولِ احْتِكامِهِمْ إلى القضاءِ، أو منْ جَرَّاءِ الْمُقامَرةِ والسَّيرِ في طُرُقٍ خَطِرَةٍ مُعْوَجَّةٍ. وكان بعضُهم من القَتَلَةِ واللُّصوصِ والْهاربِينَ منَ الْجيشِ، والْمُتَواطِئِينَ مع العَدُوِّ، والفارِّين من السِّجْنِ. ولم يكنْ في وُسْعِ أحدٍ من هؤلاءِ أن يعودَ إلى وطنِه؛ حتى لا يعرِّضَ نفسَه للقتلِ، أو الصَّلْبِ، أو السَّجْنِ، وثَمَّةَ اضْطُرُّوا إلى الهِجْرةِ إلى بلادٍ أُخْرَى، التماسًا للرِّزْقِ، وانْتِجاعًا للكَسْبِ.»

وكان السيدُ الجوادُ يُقاطِعُ كلامِي مراتٍ؛ لِيَسْتفسِرَني عَمَّا لم يفهمْهُ من حديثي وأغراضِي. ولم يكُنْ يُدْرِكُ معنَى تلكَ الجرائِم التي ذكرتُها له، ولَمْ يَتَصَوَّرْ كَيْفَ اضْطُرَّتْ جَمْهَرَةُ الملّاحِينَ الذين صَحِبُونِي في رِحْلَتِي إلَى النُّزُوحِ عَنْ بِلادِهم، وكيف اقْترفَ أُولئِكَ المجْرِمُونَ تلكَ الجرائمَ الشَّنِيعَةَ، وأيُّ حافِزٍ دفَعهم إلَى الإِقْدامِ عَلَيْها؟ وماذا أفادُوا منها؟

وقد بَذَلْتُ جُهدِي في تَجْلِيَةِ ما غَمضَ عليه، وشَرْحِ الْبَواعِثِ التي تحفِزُهم إلى ذلك، وقلتُ له، فيما قلتُ: «إن الشَّرَهَ، والْجَشَعَ، والْأنانِيَّةَ، والرغبةَ في الْحُصولِ على الْجاهِ والثروةِ والسُّلطانِ، وما يَجُرُّهُ ذلِكَ مِنَ الْحماقةِ والحَسَدِ هي جُمَّاع الرَّذائِلِ عندَنا، وَمصدرُ الجرائمِ التي تَسُوقُ الناسَ إلى هُوَّةِ الخرابِ، وتدفعُهم إلى اقْترافِ الشُّرُورِ والآثامِ.»

ولم يكُنِ السَّيدُ الجوادُ لِيَتَصَوَّرَ أنَّ لهذه الرذائلِ الْمَمْقُوتَةِ وُجُودًا. فلما سَمِع ما حدَّثتُه به تَعاظَمَتْه الدهشةُ، واستولتْ على نفسِه الحيْرةُ؛ فرفَعَ عَيْنَيْهِ إلَى السَّماءِ مُسْتَنْكِفًا، وبَدَا علَى سِيماهُ الازدِراءُ والاحْتِقارُ، بعدَ أن تكشَّفَ له من مَخازِينا ما لم يكُنْ يَسْمعُ به طُولَ حياتِه، أو يَخطُرُ لَهُ على بالٍ وصَرَخَ صاهِلًا: «تَبًّا لكُمْ يا مَعْشَرَ «الياهُو» — فقد جاوَزْتُم في الإِساءةِ والرِّجْسِ كلَّ حُسْبانٍ!»

ولم يكُنْ مِنَ اليسيرِ عليَّ أَنْ أُفْهِمَ السيدَ الجوادَ كلَّ هذه الأغراضِ، على وَجْهِ الدِّقَّةِ، وأَجْلُوَ له ما أَعْنِيه حين أذكرُ أمامَه ألفاظَ النُّفُوذِ والسُّلْطانِ والحكومةِ والحربِ والقانونِ والقِصاصِ، وما إلى ذلك من الكلماتِ التي لا عَهْدَ له بِسَماعِها. ولم يكنْ في اللُّغَةِ الصَّاهِلَةِ ما أَسْتَعِينُ به علَى تَوْضِيحِ مِثْلِ هذه الأغْراضِ، والتَّعْبِيرِ عنها. وثَمَّةَ كانتْ مُحاوَلَتِي مُخْفِقَةً، لا سبيلَ إلى نجاحِها، لَوْلا ما رأيتُه في السيدِ الجوادِ من رجَاحَةِ العَقْلِ، وبُعدِ النَّظَرِ.

وقدِ اسْتَطاعَ بعدَ مُحاوَراتٍ طويلةٍ أن يَتَعرَّفَ — في وُضُوحٍ وجَلاءٍ — كلَّ ما حدثتُه به عنْ خَصائصِ النَّوْعِ الإنسانيِّ في بلادِنا.

ولَمَّا انْتَهَيْنا من هذه الأحاديثِ طَلَبَ إليَّ أن أُحدِّثَه عن «أوروبا»، وأنْ أَتبسَّطَ في الكلامِ عن وَطَني خاصَّةً؛ فوعدتُه بتحقيقِ أُمْنِيَّتِهِ في مُحادَثاتٍ أُخْرَى.

الفصل الخامس

(١) مُحاوَراتٌ صاهِلَةٌ

أُحِبُّ أنْ يعرِفَ القارئُ أنّ ما أَقُصُّه عليه في هذا الفصلِ من أنباء وأحادِيثَ إنما هو خُلاصةُ مُحاوَراتٍ صاهلةٍ عِدّةٍ، بيني وبينَ السيدِ الجوادِ، في خلالِ عامَيْنِ. فقد كان يسألُني، فأُجيبُ — جُهدَ طاقَتِي — ثم يتفرّعُ الحديثُ، ويتشعّبُ الكلامُ، فأُفصّلُ له ما أَجْمَلْتُ.

وكنتُ كُلَّما ازْدَدْتُ تَفقُّهًا في تلك اللغةِ، ازداد صاحبي شغفًا بالتبسُّطِ معي في الحديثِ، حتى أوْجَزْتُ له كلّ ما أستطيعُ أن أُدْلِيَ به عن «أوروبا» وأحوالِها وفنُونِها وصناعاتِها وتجاراتِها وعلومِها، وما إلى ذلك من الشئونِ الخطيرةِ.

وإنِّي مُجْتَزِئٌ من تلك المحاوَراتِ بما دارَ بيننا عن وَطَنِي؛ حتى لا أُضْجِرَ القارئَ بتفصيلٍ لا داعِيَ إليه، وقد كنتُ أخذتُ نفسي بأن أُحدِّثَ السيدَ الجوادَ عن حَواشِي الحوادِثِ وبَسائِطِها، أكثرَ ممَّا أخذتُ نفسي بالتَّعَمُّقِ في صَمِيمِها. ولَنْ أَنْسَى ما كابدتُه من عناءٍ وجَهدٍ كُلَّما تَوَخَّيْتُ الإبانَةَ — للسيد الجوادِ — عن آرائي وأغراضي؛ كنتُ أُعانِي في الْوُصُولِ إلى ذلك — من أَلْوانِ التَّعَبِ — ما لا سبيلَ إلى وَصْفِه، لضَعْفِي وحداثَةِ عِهْدِي في الترجمةِ إلى تلك اللغةِ المُعَقَّدَةِ الصَّاهِلَةِ!

(٢) دَواعِي الْحروبِ

وكان من أهمِّ الأحاديثِ التي دارت بيننا حديثُ الثورةِ الأخيرةِ التي نَشِبَتْ في «إنجلترا»، من جَرَّاء الغارةِ التي شنّها الأميرُ «أورَنْج»؛ فكانت سببًا في إيقادِ نارِ الحربِ بين الدُّوَلِ الَمسيحيّةِ كلِّها.

وسألني السيدُ أن أُحْصِيَ مَنْ هَلَكوا في تلك الحربِ الطاحِنَةِ المشئومةِ؛ فأخبرتُه أنَّ عَدَدَهُم لا يقلُّ عن مِلْيُونٍ منَ «الياهُو»، وأَحْصَيْتُ له المدنَ التي حُوصِرَتْ، والتي تعرَّضَتْ لغارات الأعداء، وهي لا تَقِلُّ عن مائةِ مدينةٍ.

وذكرتُ له أن عددَ السُّفنِ التي أُحْرِقَتْ أو أُغْرِقَتْ يَزِيدُ على خَمْسِمائةِ سفينةٍ. وقد حَلّتْ هذه الأحداثُ والخُطوبُ كلُّها في عهدِ الأميرِ «أورنج» والملكةِ «حَنَّا»، فسألني السيدُ مدهوشًا: «وما الدَّواعِي القاهرةُ التي تَحفِزُ «الياهُو» إلى اشتباكٍ في مثلِ هذه الحربِ الطاحنة؟»

فحمحمتُ صاهلًا: «إن لهذه الحربِ أسبابًا لا تُحصَى. وإِنِّي مجتزئٌ بذكْرِ أهمِّ الحوافزِ التي تدفعُ الناسَ إلى اقْتحامِ هذه الأخطارِ.»

فأرْهَفَ السيدُ أُذُنَيْهِ، وأصاخَ إليّ بسَمْعِه، فاسْتَأْنَفْتُ صاهِلًا: «إن أكثرَ هذه الحروبِ يرجِعُ إلى أَطماعِ الأُمراءِ والوُلاةِ والْحُكّامِ، الذين لا يقنَعُون بما يحكُمون من بلادٍ وشعوبٍ؛ فَتَطمحُ نفوسُهم إلى التوسُّعِ في الفتحِ؛ حتى تَتَّسِعَ رِقاعُ الْمَمالِكِ التي يحكُمونها، ويكثرَ عددُ الشعوبِ التي تَدِينُ لهم بالخضوعِ والطَّاعة.

وربما نَشِبَتِ الحروبُ الطاحنةُ من جرّاءِ السَّاسَةِ الذين أَعْمَتْهُمُ الأنانيّةُ والشَّهْوَةُ، وأفسدَ قلوبَهُم الطمعُ والهوَى، وكثيرًا ما رأينا الوزراءَ يَسْتُرون بِالْحَرْبِ خَطَأَهُمْ في الْحكم، وفسادَ آرائهم في سياسةِ بِلادِهم؛ فإذا رأَوُا النَّتِيجَةَ وَشِيكَةَ الظُّهورِ شَغَلُوا بلادَهم بحروبٍ يخلُقون أسبابَها ودواعِيَها خَلْقًا، لِيَزُجُّوا بأوطانِهم فيها زَجًّا؛ فتُنْسِيهَا وَيْلاتُ الْحربِ وأَحْداثُها حَماقَةَ أُولئك الوزراءِ، وتَشْغَلَ الشَّعْبَ عَن مُحاسَبَتِهم عَلَى سُوءِ إدارتِهم، وفسادِ أعمالِهم.

ورُبَّما نَجَمَ مِن اختلافِ الرأيِ، وتبايُنِ وِجْهاتِ النظرِ شرورٌ وآثامٌ، تُطِيحُ بالْملايينِ الوادعةِ الآمنةِ منَ الأفرادِ.

والتَّخالُفُ هو مصدرُ الْمصائبِ، ومَنْبَعُ الْخطوبِ، ورأسُ الأحداثِ:

«لولا التَّخالُفُ، لم تَرْكُضْ — لغايتِها — خَـيْـلٌ، ولـم تُـقْـنَ أرْمـاحٌ وأسْـيـافُ.»

ولهذا التَّخالفِ أسبابٌ غايةٌ في التفاهةِ، وإن كانت نتائجُها غايةً في الْخُطورةِ. فقد يحدُثُ أنه بَيْنا يَرى أحدُهم أن الصَّفِيرَ عادةٌ مُسْتَقْبَحَةٌ، ورذيلةٌ يجبُ الْقضاءُ عليها، يرَى الآخرُ أن الصفيرَ فضيلةٌ يجبُ احْترامُها، وتشجيعُ الناسِ عليها!

وبينا ثالثٌ يَرَى قطعةً منَ الْخشبِ فيَهِيمُ بِحُبِّها هُيامًا، يرى رابعٌ أن تلك الطُّرْفةَ جديرةٌ أن تقدَّمَ طُعْمةً للنارِ!

ويُفَضِّلُ أحدُ الناسِ أن يرتديَ الثوبَ الأبيضَ، على حينِ يُفضِّلُ الآخرُ الثوبَ الأسودَ، أو الأحمرَ، أو الرَّمادِيَّ، مثلًا!

ويُؤْثِرُ أحدُهُم الثيابَ القصيرَة أو الضَّيِّقةَ؛ فيَنْبَري له من يُسَفِّهُ رأيَه ويمتدحُ الثيابَ الضَّافِيَةَ أو الْفَضْفاضَةَ!

ويرى بعضُهم أن العنايةَ بالأزْياءِ واجِبةٌ، فيناقِضُه الثانى مُدَلِّاً على أنها حقيرةُ الشَّأنِ، قليلةُ الْخطرِ!

واعْلَمْ — يا سيِّدي — أن حُروبَنا لا يَعْظُم أمرُها، ويشتدُّ خطرُها، فتأتي على الأخضرِ والْيابسِ، وتُهْلِك الْحَرْثَ والنَّسْلَ، إلَّا إذا كانتْ ناشِئَةً منِ اختلافِ الآراء، وتَبايُنِ وِجْهاتِ النظرِ.

وكُلَّما كان مَصْدَرُ الْخِلافِ تافِهًا حقيرًا عظُمَتِ الْحربُ، واشتَدَّ أُوارُها، وذَكَتْ نارُها!»

(٣) بَغْيُ الأقْوِياءِ

ثم اسْتأنفتُ صاهلًا: «وربما اشْتبكَ مَلِكانِ — في حربٍ طاحنةٍ — لأن كلاًّ منهما يريدُ أن يعتديَ على مَلِكٍ ثالثٍ، ليغتصِبَ بلادَه من غيرِ حَقٍّ، ويخشَى كِلاهُما أن يظفَرَ صاحبُه بهذه الغنيمةِ، فيقفُ له بالْمِرْصادِ، ويَنْتَحِلُ له من أفانينِ التَّجَنِّي ما يدفعُه إلى محاربتِه. وربما تَوَجَّسَ بعضُ الملوك شَرًّا من جارِه، وَتَوَهَّمَ أن الجارَ سَيَبْدَؤُهُ بالْعُدْوانِ؛ فما إنْ يَقِر في نفسِه هذا الوهمُ، حتى يبدأَ بالْحرب؛ ليتَغدَّى بِجارِه قبل أن يكونَ عَشاءً لَهُ! وقد يَحْتَرِبُ الْملِكانِ لأسبابٍ غايةٍ في الْغَرابةِ، فيعتدِي أحدُهما على الآخرِ، حِينَ يراه قويًّا

مُسْتَكْمِلَ الْعُدَّةِ؛ فيْنفَسُ عليه قُوَّتَهُ، ويَسْعَى إلى تَقْلِيمِ أظافره. وربما اعتدَى عليه لأنه يراه ضعيفًا، لا قُدْرَةَ له على الحربِ، ولا طاقةَ له بمَغارِمِها وأهْوالِها. وقد يَحْتَرِبان لأن أحدَهما يطمَعُ في الحصولِ على نفائسَ وطُرَفٍ، يجدُها عند مُنافِسِه، ولا يجدُها في بلاده. وجُمَّاعُ الْقولِ أن الْحربَ قد تنشَبُ بين أُمَّتيْنِ للحصولِ على شيءٍ، أو للحصولِ على ما ليس بشيءٍ! وربما ظهر الوبأُ والْمجاعةُ في أحدِ البلاد، فلا يكادُ بَعْضُ الْجيرانِ يَراهُما قد حَلَّا بذلك الْبلدِ الآمنِ الْمطمئنِّ فَأَرْهَقاهُ، ويَرَى الأحزابَ بين سُكّانِه تَتَعَدَّدُ فَتُمَزِّقُه شرَّ مُمَزَّقٍ؛ حتى يَجِدَ في ذلك مُسَوِّغًا للبَغْيِ والْعُدوانِ عليه، وحافِزًا لاغْتِصابه، وشَنِّ الْغارةِ على أهلِه. وربما بدأ أحدُ الْمَلِكَيْنِ حَلِيفَه بالْعُدْوان، لأنه يرى أَن يَضُمَّ بعضَ مُدُنِه إلى مملكتِه؛ ليوسِّعَ من رُقعتِها، ويزيدَ في غِناها وثَرْوَتِها. وإذا احْتَلَّ أحدُ الْملوكِ بلدًا منَ الْبُلْدَان الضعيفةِ، ورأى أَهلَه رازِحِينَ تحتَ أَعباءِ الْفقرِ والْجهالةِ؛ أَجازَتْ له شَرائِعُ الحضارةِ والإنصافِ أَن يقتُلَ نصفَ الشّعْبِ، ويستَعْبِدَ النصفَ الآخرَ؛ لِيُحَضِّرَهُ ويُخْرِجَهُ من ظُلُماتِ الْجهلِ والْهَمَجِيَّةِ، إلى نُورِ العلمِ والْمَدَنِيَّةِ! وثمَّةَ أُسلوبٌ طريفٌ، لا يُلَامُ عليه منهم إنسانٌ، وسُنَّةٌ بديعةٌ لا يروْنَها مُنافِيَةً للمُرُوءةِ والشرفِ، وهي أَن يستنجِدَ أَحدُ الْملوكِ بصاحبِه — إذا ضاق ذَرْعًا بعدوِّه — فيحالِفَه ذلِكَ الْملِكُ على عَدُوِّه؛ حتى إذا تمَّ لهما الظفَرُ، وطَرَدا الْعدوَّ من الْبلادِ، طمِع النصيرُ في حَليفِه، واسْتولَى على بلادِه، وطردهُ بعد أَن نَصَرَهُ، ورُبَّما قَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ، وحَلّ مكانَه في الْبلادِ، ولم يَرَ في ذلك إثْمًا ولا عارًا! وربما كانتْ وَشائِجُ الْقُرْبَى بين حلِيفَيْنِ من أَسبابِ الطمعِ، وخَلْقِ الْحروبِ الطاحنةِ. ومِن الْعجيبِ أَنّ أَواصِرَ الْقُرْبَى كُلما أُحْكِمَتْ أصبحَتْ مِنْ مُغرِياتِ الحروبِ، وباعِثاتِ الشُّرورِ، وجالباتِ البَغضاء!»

(٤) الْجنودُ الْمُرْتَزِقَةُ

وبعد أن سكَتُّ بُرْهَةً اسْتَأْنَفْتُ صاهلًا: «وما دامَ في الدُّنيا ضَعِيفٌ وقوِيٌّ فلن تضعَ الْحروبُ أوزارَها؛ لأن الشعوبَ الضعيفةَ — التي ضُرِبَتْ عليها الذِّلةُ والْمسكنةُ، ومزَّقتْها الْمجاعةُ، وطَحَنَها الْوَبَاءُ — تُغْرِي بضَعفِها الْأُمَمَ الْقويةَ، التي ترى فيها لُقْمَةً سائغةً، يَسهُلُ ازْدِرادُها. وما زالَ الْفقرُ والطمعُ يُثيرانِ الْحروبَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ومادامتِ الشعوبُ لا تستغنِي عنِ الْحربِ فهي — كذلك — لا تستغني عن أدَواتِها. والْجنديُّ هو

قِوامُها وأَكْبَرُ عَتادِها؛ فلا غروَ إذا أصبحتْ مِهْنَةُ الْجنديِّ من أَشْرَفِ الْمِهَنِ وَأكرمِها. فإذا أردتَ أن تعرفَ: مَنِ الْجنديُّ عِنْدنا؟ فاعْلَمْ أنه «ياهُو» مَأْجُورٌ مرتزِقٌ، قد وَقَفَ حياتَه وجُهْدَه وقُوَّتَهُ على قَتْلِ إخوانِه في الإنسانيةِ، مِمَّنْ لَمْ يعتدُوا عليهِ، ولم يَمَسُّوه بسُوءٍ، وهو لا يَتورَّعُ عن قَتْلِهِمْ ونفسُه راضيةٌ مُطمئنّةٌ! وكثيرًا ما رأينا الأُمَمَ تُؤَجِّرُ جنودَها للأمم القويةِ الأخرى، لتساعدَها في حروبِها، وليزيدَ أَجرُ الْجنودِ في خِزانَةِ الدّولةِ الْمُؤَجِّرَةِ.»

(٥) مَآخِذُ السيدِ الْجوادِ

فَحَمْحَمَ السيدُ الْجَوادُ صاهلًا، وقد اشْتدَّ نُفورُه مما سمِع: «إن الأسبابَ التي تُسَوِّغُونَ بها عُدْوَانَكم، وبَغْيَ بعضِكم على بعض قد شَكَّكَتْني في سَلامةِ عُقُولِكم، وأَقْنعَتْني بخَطَلِ آرائِكم، وفَسادِ أحكامِكم، فليْسَ منَ الْمعقولِ أن تصدُرَ أمثالُ هذه الْحماقاتِ من عُقَلاء راشِدينَ. وأَخْلِقْ بكم أَن تَجْنُوا عَواقِبَ حَماقَتِكُمْ، وأَن تحصدُوا الْوَيلَ، بعدَ أن بَذَرْتُمْ بُذُورَ الأَذى والشِّقاقِ! ومهما يكُنْ من أمرِكم، فإِنَّ من الْخيرِ والسعادةِ لكم أنكم ضِعافُ الْبِنْيَةِ، وفي هذا الضعفِ ما يَخْضِدُ من شَوْكَتِكم، ويُقَلِّلُ من أذِيَّتِكم. وما دُمتمْ قد وصلتُم في الْحماقةِ إلى هذا الْحدِّ، وبلغتُم منَ الْبَغْيِ هذا المَدَى، فإِن منَ البرِّ بكم أن تُخْلَقُوا — هكذا — ضِعَافًا عَجَزَةً!

على أنني آخذُ عليك أَنك تَقُصُّ عليّ ما لا سبيلَ إلى فهمِه. وأَراك قَدْ أَسْرَفْتَ وغَلَوْتَ — في تصويرِ النتائجِ الْمُفَزِّعَةِ التي نجمَتْ عن حُروبِكمُ الْقاسيةِ الشَّعْواءِ — وجاوزْتَ الْقَصْدَ حين ذكرتَ لي عددَ الضَّحايا الذينَ هَلَكوا في تلك الْحروبِ الطاحنةِ. وما أُراكَ إلا مُسْرِفًا في الْمُبالغةِ، إن لَمْ أَقُلْ إنكَ تُخْبِرُني بما لا أَفهمُه. إنَّ فاكَ مُسَطَّحٌ، ووَجْهَكَ مُسْتَوٍ، فكيف يَحْتَرِبُ مِثْلُك؟ وبأي وَسيلةٍ يَعَضُّ بعضُكم بعضًا، وليس لكم أَنيابٌ حادّةٌ؟ أَمَّا المَخالبُ — الْخلفيّةُ والأماميةُ — التي في أَرجُلِكم، فهي قصيرةٌ ضعيفةٌ، لا تَقْوَى على إِلْحاقِ الْأذى بكائنٍ كان. وفي قدرةِ واحدٍ فَرْدٍ من «الْياهُو» عندَنا أَن يُمَزِّقَ بأنيابِهِ ومَخالبِهِ عشرةً من أمثالِك!»

(٦) أَساليبُ الحربِ

فأدركتُ أن السيدَ لم يفهمْ حقيقةَ ما أَعنِيه، ولم أتمالَكْ أن أهُزَّ رأسِي مُبتسِمًا لهذا الْخَلْطِ الذي بَدَا منه.

وكنتُ أعرِفُ شيئًا من فُنونِ الحربِ؛ فانْطلقتُ أَصِفُ ما عَلِمْتُه من أساليبها، وأُفَصِّلُ ما أَجْمَلْتُه عنها. وعَدَّدْتُ أدواتِ الْهلاكِ ووسائلَ التخريبِ في بلادِنا؛ فوصفْتُ الْمدافعَ الخَفِيفةَ الصغيرةَ، والكبيرةَ الضخمةَ التي تَدُكُّ الْحُصونَ الْمنيعةَ دَكًّا، كما وَصَفْتُ لهُ البنادِقَ الْمُختلِفةَ الأنواعِ والأحجامِ، والْغَدّاراتِ والبارودَ، والسيوفَ، والْحِرابَ، والقنابلَ، وما إِلى ذلك من أَدَواتِ التَّدْمِيرِ والتَّخْرِيبِ.



ثم ذكرتُ كيفَ نُحَاصِرُ الْمُدُنَ والبُلْدَانَ، وكيف نقتحِمُ الخَنادِقَ اقْتِحَامًا، وكيفَ نَفْتَنُّ في الهجومِ والدفاعِ، وإِلْغامِ طُرُقِ العدُوِّ، ورَفْعِ الأَلْغامِ التي يضعُها الْعَدُوُّ في طُرُقِنا، وكيفَ نُغْرِقُ السُّفنَ، والْبوارجَ الحربيَّةَ الْهائلة — الَّتي تَسَعُ الواحدةُ منها أَلْفَ رجلٍ — بكلِّ من فيها من جندٍ وملَّاحِين.

وأَبَنْتُ له كيفَ تُمْطِرُها مدافعُنا الضخمةُ وابلًا من الْقذائفِ النَّاريةِ فتُلْهِبُها وتُغْرِقُها في مِياهِ البحرِ. وكيفَ خَسِرْنا في إِحدَى حروبِنا عِشْرِينَ أَلْفَ جُنْدِيٍّ، وقُتِلَ من أَعْدائنا مثلُ هذا القَدْرِ.

ووصفْتُ له هَوْلَ المعاركِ الحربيةِ، وكيفَ يُثارُ غُبارُها، ويَعلُو دُخَانُها، وتَنْدَلِعُ أَلْسِنَةُ النارِ فيها، وتَبْرُقُ بُروقُها، وتَقْصِفُ مدافِعُها؛ فتغطِّي جَلْجَلَتُها ودَوِيُّها على أَنِينِ الْجَرْحَى وصيحاتِ الْمُتقاتِلين، وتحجُبُ السُّحُبُ الْمُتكاثِفةُ الصَّفِيقَةُ — مِنَ الْغُبارِ والدُّخَانِ — أَشْلاءَ القتلَى الْمتناثرةَ في الْهواءِ، ودماءهمُ الْمُهرَاقةَ على الأرضِ، وجثثَهمُ التي وَطِئَتْها الأقدامُ. فإذا انْتهتِ الْمعركةُ تركنا أَشْلاءَ القتلى غَنِيمَةً سَهْلَةً للذئاب، وطعامًا سائغًا لِسباعِ الطَّيْرِ، وشَغَلَنا عنهمُ السَّلْبُ والنَّهْبُ والتنكيلُ بالأحياءِ منَ الأعداءِ.

وامتلأتْ نفسي فخرًا وحماسةً بما أحرزَتْه بلادي من ظَفَرٍ على أعدائها في أَمْثالِ هذه الحروبِ؛ فذكرتُ للسيدِ الْجوادِ — مُدِلًّا تَيَّاهًا — أنني رأيتُ جُنودَ بلادي — ذاتَ مرّةٍ — يَنسِفون مائةً من أعدائِهم في الْهواء، فتتطايرُ أَشْلاؤُهُم في الْجَوِّ، ثم تَتَحَدَّرُ هاوِيَةً على الأرضِ — كما تَهْوِى كِسَفٌ مِنَ السُّحُبِ — أمامَ النَّظَّارةِ!

(٧) جَزَعُ الْجوادِ

وهمَمْتُ بمُتابعةِ الحديثِ، ولكنَّ السيدَ لم يُطِقْ أن يسمعَ مني أكثرَ مما سمِع؛ فأمرني أن أَكُفَّ عنِ الْكلامِ، وأَلُوذَ بالصَّمْتِ، وحمحَم صاهلًا: «مَهٍ!مه!فقد سَكَكْتَ سمعِي بهذا الْهَذَرِ الْممقوتِ، وكشفتَ لي من لُؤْمِ طِباعِكم ما لم يكُنْ ليخطُرَ لي على بالٍ. وإني لأَعْجَبُ من قُدْرَتِكُم على اقْترافِ الآثامِ والشُّرورِ، مع ضعفِكم وعجزكم. ولقد كنتُ أمقُتُ «الياهو» — لخبثِه ولؤمِه — ولم أَكُنْ أحسَبُه يَصِلُ إلى هذا الدَّرْكِ منَ الإسفافِ والدّناءةِ.»

والْحقُّ أن أَحاديثي قد أزعجتِ السيدَ الْجوادَ، وبَلْبلَتْ خاطِرَه، وزادتْه حَنَقًا وسُخْطًا على «الياهو» في جميعِ أنحاءِ الأرضِ. وظهرتِ الْحَيْرةُ والاِرتباكُ على سِيماه، وأصبح في حالٍ لا تُوصفُ من السُّخْطِ والْأَلَم. وكان يخشَى أنْ تألَفَ أُذُناه أمثالَ هذه الأحاديثِ، فَتَمْرُنَ عليها، ولا تلبثَ — بِطُولِ الأُلْفَةِ — أن تَسْتَسِيغهَا، وتُهَوِّنَ من شأنِها، وتقلِّلَ من خطرِها.

وكان — عَلَى بُغضِه دوابَّ «الياهو» في بلادِه — لا يؤاخذُها بما تقترِفُه من آثامٍ؛ لأَنها قد حُرمتِ العقلَ. ولم يكن يقسُو عليها في معاملتِها. أمَا وقد رأى دابَّةً مثلي من دوابِّ «الياهو» تفخَرُ بالعقل والْحكمةِ والسَّدادِ، ثم تُزْهَى بأمثالِ هذه النَّقائِصِ والْمُخْزِياتِ،

فإِنَّ سُخْطَه وغَيْظَه قد بلغا أَشُدَّهما؛ لأنه يرى أن العقلَ الفاسدَ شرٌّ وَبيلٌ، وأَنّ مَن يُوَجِّهُ مواهِبَه وتَفْكِيرَهُ إلى اقترافِ مثْلِ هذه الدَّنايا والآثامِ، هو شرٌّ ممَّن حُرِمَ نعمةَ العقلِ، منَ الوحُوشِ الضَّارِيَةِ، والدَّوابِّ السَّائِمَةِ.

ويَبْدُو لي أَنه قد أَدرك أَن عقلَنا — إذا صحَّ عندَه أَنَّ لنا عقلًا — قد تنازعَتْه غرائزُ، وقُوًى نفْسّيةٌ خبيثةٌ؛ فغلبتْ أَهْواؤُها عليه، وصَرَفَتْه إلى الشرِّ والإثمِ؛ فأصبح كالْماء الْمائِج الْمضطربِ: يكشِفُ عن صُوَرِ الأشياءِ مُشَوَّهَةً، فلا يُعطيك فكرةً صحيحةً عنها، بل يُعطيكَ صورةً خاطئةً تُضِلُّكَ!

وعندَه أَنَّ الجهلَ خيرٌ من هذه الْمعارفِ الْمُضطربةِ الزائفَةِ.

(٨) ضَحايا القانُونِ

واسْتأنف السيدُ الجوادُ صاهلًا: «لقد حدّثْتَني — عما تُسَمُّونه الْحربَ — أحاديثَ شتّى مُسْتفِيضةً. ولكنك لم تحدِّثْني عما عَنَيْتَه بقولِك — في إِحدَى مُحادَثاتِك — إنّ بعضَ «الياهو» الذين صحِبُوك في سفينتِك كانوا هارِبِينَ من القضاءِ، وإنَّ القانونَ قد أَوْقَعَهُمْ في تلكَ الهاويةِ. ولستُ أَدْرِي ماذا تَعنِيه بهذا الكلامِ؟ فإنك قد حدّثْتَني أن القانونَ قد وضعتُمُوه للدفاعِ عنكم جميعًا. فكيف جَنَى هذا النظامُ الصَّالِحُ عليكم، وشَتَّتَكم في أقاصِي الأرضِ؟ وما حاجةُ العقلاءِ الرَّاشِدِينَ إلى قانُونٍ، بعد أنْ عَرَّفَهمُ العقلُ طريقَ السَّدادِ، وطريقَ الغَيِّ، وأنارَ لهمْ سبيلَ الْهِدايةِ، وسبيلَ الضلالِ، وبَصَّرَهم بما يجدُرُ بهم أن يَتَّبِعُوه، أو يتحامَوْه؟»

فأجبتُه صاهلًا: «إنني لم أتفقَّهْ في التَّشرِيع، ولم آخُذْ منَ القانونِ بحظٍّ كبيرٍ منَ الْفَهْمِ والدَّرْسِ، وإن كانت صِلَتي ببعضِ المحامِينَ — مِمَّن تَصَدَّوْا للدفاعِ عني في بعضِ الْقَضايا لرفْعِ ما لَحِقني من جَوْرٍ وحَيْفٍ — قد هَيّأتْ لي فرصةً لإدْراكِ طَرَفٍ مِنَ الْمعارفِ الأوَّليَّةِ التي تُلَبِّي بعضَ رغباتِكَ في هذا البابِ. إنَّ في بلادِنا جَمهرةً منَ الرجالِ، يتعلَّمُون — منذ حَداثتِهم — فُنُونَ الْجَدَلِ وضُرُوبَ الْمناقشةِ والْحِجاج؛ يُدَرَّبون على إقامةِ البرهانِ — في عباراتٍ واضحةٍ خلَّابةٍ — على أن الأبيضَ أسودُ، والأسودَ أبيضُ. وهم يُدَلِّلون على ذلك لقاءَ ما يُعْطَوْنَهُ مِنْ أَجر!»

ثم ضربتُ للسيدِ الْجوادِ — على ذلك — مثلًا يفسِّرُ له ما أُريدُ، وهو: «إذا طمِع جارِي في بَقَرَتِي، وأراد أن يَسْتَحْوِذَ عليها، فهو على يقينٍ من أنه لَنْ يَعْدَمَ حيلةً يتحَوَّلُها لِنَيْلِ وَطَرِه، وقَضاء مَأْرَبِه. وهو لا بُدَّ واجِدٌ من رِجالِ الْقانونِ من يُقيمُ له الدليلَ على أنَّ مِن حقِّه أن يَسْلُبَني هذه البقرةَ. وثَمَّة يَزُجُّ بي إلى الْقضاءِ، ويَضطرُّني إلى توكيلِ مُحامٍ عنِّي؛ ليدافعَ عن حَقِّي دِفاعًا قانونيًّا ترضَى به المحكمةُ، ويُكَبِّدَني منَ المالِ ما لا طاقةَ لي به.»



ثم حَمْحَمْتُ للسيدِ الجوادِ صاهلًا: «أمَّا المحكمةُ، فهي — في حقيقتِها — جمهرةٌ منَ القُضاةِ، أكسبَهمُ الْقانونُ حقَّ الفصلِ في جميعِ الْمُنازَعاتِ التي تَنْشَبُ بينَ سَوادِ الناسِ — خاصَّةً وعامَّةً — ولَهُم أن يحكُمُوا في الْقضايا المدَنِيَّةِ والجِنائِيَّةِ على السَّواءِ. وهم صَفْوَةٌ مُختارةٌ من أنبلِ الْمُشَرِّعِينَ، وأقْوَمِهم سُلُوكًا، وأوفرِهم نزاهةً، وأرْجَحِهم عقلًا، وأكثرُهم ممن أنضَجتْهُمُ الشيخوخةُ، وجَهَدَتْهُمْ تجارِبُ المِهنةِ وشُئونُها. وهم مُضْطَرُّونَ

إلى الأخذِ بما يسمعُونه، وليس في وُسعِهم أن يُغيِّروا في الوقائِع التي تُعْرَضُ أمامَهم، مهما كانت ظالمةً مُلَفّقَةً. وهم من أعلَى أمثلةِ النَّزاهَةِ؛ لا ينحرِفُون عنِ الشَّرفِ، ولا يَحِيدُون عن الواجبِ. وقد رأيتُهم بِعَيْنَيْ رأسي يرفُضونَ هَدايا ونفَائِسَ نادِرَةً منَ الْخُصومِ الذين كانوا على حقٍّ في مُنازَعاتِهم، حتى لا يَمَسُّوا شَرَفَ القضاءِ. ومنَ المبادئ المُقَرَّرةِ التي ينتهِجُها القُضاةُ، أن يحترِمُوا نُصوصَ الأحكامِ السابقةِ — أيًّا كانت قيمتُها — ويَعُدُّونها من النُّصُوصِ الْمُقَدَّسةِ، والأسانِيدِ الوثيقةِ، التي يَرْجِعون إليها عندَ الحاجةِ.»

(٩) أُسْلُوبُ الدِّفاعِ

ثم سَكَتُّ بُرْهَةً، واسْتأنَفْتُ صاهلًا: «وللدِّفاعِ أُسلوبٌ عجيبٌ في إطالةِ الحِوارِ، ونقلِ المُحاجَّةِ من وِجهةٍ إلى أخرى، والتعرضِ لِلْفُرُوعِ والْحواشِي، وَحُبِّ الاِسْتِطْرادِ إلَى حَدٍّ يُضْجِرُ السَّامعَ ويُسْئِمُهُ. ولْأُوضِّحْ لك ما أعْنِيه، مُتَّخِذًا من مِثالِ البقرةِ — الذي ذكرتُه لك — مِصداقَ ذلك: يتحاشَى الدفاعُ — جهدَه — أن يدخلَ في صميمِ الموضوعِ، كما أخبرتُك آنِفًا. وهو لا يُعنَى بِسَماعِ الحُجَجِ التي يُدْلِي بها مُحامِيَّ للتدليلِ على حَقِّي في امتلاكِ البقرةِ، بَلْ يَتسلَّلُ إلى الْهَوامِشِ والْحواشِي. يتساءلُ ليتعرَّفَ لَوْنَ البقرةِ؛ أهي سوداءُ أم حمراءُ؟ وقَرْناها كيف هُما؛ قصيرانِ أم طويلانِ؟ والحقلُ الذي ترعاه؛ ما خَطْبُهُ؟ أهو مستديرٌ أم مُربَّعٌ؟ والبقرةُ أين تُحْلَبُ؛ في المنزلِ أم في خارجِه؟ وكِيانُها؛ قَوِيٌّ أمْ ضعيفٌ؟ وصِحَّتُها؛ عُرْضةٌ للمرضِ أم سليمةٌ لا تؤثِّرُ فيها الجراثيمُ؟ وهكذا إلى آخرِ هذه الأسئلةِ التي يَطولُ عَدُّها! فإذا انْتَهَى مُحامِي الدفاعِ من حِجاجِه وأدِلَّتِه، أُجِّلَتِ القضيةُ إلى أَمَدٍ بعيدٍ أَو قريبٍ. ثم لا تزالُ تُؤَجَّلُ من زمنٍ إلى زمنٍ، حتى ينفَدَ صبرُ المُتقاضِينَ. وربما تَأَخَّرَ الحكمُ فيها إلى عَشْرِ سِنين، أو عشرِينَ، أو ثلاثِين في بعضِ الأَحايِينِ! وللقُضاةِ قانونٌ لا يَحِيدُون عنه قِيدَ أُنْمُلَةٍ، وقد كُتِبَ هذا القانونُ بأُسلوبٍ بِعَيْنِه، لا يفهمُه غيرُهم. ولا يزالُ المشَرِّعُونَ يُضِيفُون نُصُوصًا جديدةً إلى نُصوصِه القديمةِ؛ فيَزيدُون في تعقيدِ الْمسائِل، رغبةً في تَوَخِّي الْعدالةِ وتحرِّي الدقّةِ. وقد يطولُ أَمَدُ البحثِ إلى ثلاثِينَ عامًا كاملةً، لِيُحْكَمَ — لِي أَوْ عَلَيَّ — بأَنّ الأَرْضَ التي تركها لي أَجْدادِي منذُ سِتَّةِ أَجْيالٍ مُتعاقبةٍ

مِلْكٌ لي، أو مِلْكٌ لرجلٍ أجنبيٍّ وُلِدَ على بُعْدِ مائةٍ منَ الأميالِ من الأرضِ التي وَرِثْتُها من أسْلافي!

أما الجرائمُ التي يقترفُها بعضُ الْجُناةِ ضِدَّ الدولةِ، فإن القضاءَ يفصِلُ في أَمرِها سريعًا. وهي تنتهي بقتلِ الجاني، أَو تبرِئَتِه، حَسَبَ نُصوصِ القوانينِ.»

فقاطعني السيدُ الجوادُ صاهلًا: «إِنّ منَ الحَيْفِ والغَبْنِ أَنْ يَغْفُلَ المشرعون — وهم على ما وصفتَ من رَجاحةٍ وحَزْمٍ — عَنْ توجيهِ الجُناةِ إلى طُرُقِ الخيرِ، بالنصيحةِ والمَوْعِظةِ الحسنةِ. وما كانَ أَجدَرَهُم أَن يوجِّهُوا عبقريّتَهم إلى تهذيبِ أُولئك الْجُناةِ، وأَن يُسَلِّطوا قُواهُمُ النفسِيّةَ عليهم، ويُلَقِّنُوهم — من دُروسِ الحكمةِ والفضيلةِ — ما يُرْشدُهم ويَهدِي قلوبَهم إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ، ومَحَجّةِ الصوابِ.»

الفصل السادس

(١) خَطَرُ الْمالِ

ولم يستطعِ السيدُ الجوادُ أن يُدرِكَ الأسبابَ التي تُنسِي أولئكَ المشَرِّعين تلك الغايةَ النبيلةَ التي تعودُ على العالَم بالْخيرِ العميمِ. ولم يَفْهَمْ — كذلك — ما أَعْنِيه بكلمةِ الأَجْرِ الذي يدفعُه المُتقاضِي لمحامِيه. فاضْطُرِرْتُ إلى تفصيلِ ما أَجْمَلْتُ، وشرحْتُ له معنَى النَّقْدِ، وكيف يُصْنَع، وكيفَ تَتَفاوَتُ قِيَمُ المعادِنِ التي نَسُكُّها، وكيفَ نُسَمِّيها — بعد ذلك — مالًا، وكيفَ نشترِي بِها ما نحتاجُ إليه من فاخرِ الثيابِ، والرِّياشِ، والقُصُورِ، والدَّساكِرِ، والأطعمةِ الشهيّةِ، والأَشْرِبةِ اللَّذِيذَةِ، وكيف يُوَفِّرُ لنا الْمالُ أسبابَ السُّرُورِ والْمُتَعِ وجالِباتِ البَهجةِ والأُنْسِ، فلا غَرْوَ إذا تكالَبْنا — معشرَ «الياهُو» — على ادِّخارِهِ، وجمْعِهِ بِكُلِّ وَسيلةٍ، لنُنْفِقَ منه على مَباهِجِنا، ونُيَسِّرَ به أسبابَ رَفاهِيَتِنا.

وحدثْتُه — فيما حدَّثتُه — عَمَّا يتمتَّعُ به الغَنِيُّ من ثِمارِ الفقراءِ، ونِتاجِ جُهودِهم، وكيف يَكُدُّ الفقيرُ في عملٍ مُرْهِقٍ؛ ليُمْتِعَ الغنيَّ ويُرَفِّهَ عنهُ، ثمَّ لا يَلْقَى على جُهودِهِ الْمُضْنِيَةِ إلَّا أَجرًا تافهًا حقيرًا.

واسْتَرْسَلْتُ — للسيد الجوادِ — في الشَّرْحِ والتَّفصيلِ، ولكنه لم يستطعْ أن يَفهمَ حقيقةَ ما أَعْنِيه، فقاطعني صاهلًا: «أليستِ الأرضُ كلُّها مِلْكًا شائعًا بينَ الدَّوابِّ والحيوانِ جميعًا؟ أليس لهمُ الحقُّ في كلِّ ما تُخرِجُه من غَلَّةٍ وثمارٍ؟ ألا يأكلون منه ما يشاءُونَ؟ فإذا لم يكُنْ ذلك كذلك، أَفَلَيْسَ منَ الحقِّ أن يكونَ أَكثرُكم تَعَبًا، هو أَوْفَرَكُم مِنْ خَيْراتِها حَظًّا؟»

ثم اسْتأنفَ كلامَه صاهلًا: «ولكنْ خَبِّرْني: ماذا تعني بالأطعمةِ والأشربةِ الفاخرةِ؟ وما هي ألوانُها المختلِفةُ التي أَصبحتْ ضَروريّةً لكم؟»

فذكرتُ له من لذائِذ الأطعمةِ الْمُرْتَقِياتِ — على اختلافِ أَلْوانِها — ما أدهشه وحيَّرَ عقلَه.

(٢) مَساوِئُ الْحضارَةِ

وذكرتُ له كيف يفتَنُّ طُهاتُنا في تنسيقِ أَلْوانِ الطعامِ، وابتكارِ كلِّ عجيبٍ منها؛ وكيف يُعالِجُونَ اللَّحمَ بالتَّوابِلِ، لتَزِيدَ في شَهِيَّةِ آكِلِهِ، وكيف يصنعون الأشربةَ الفاخرةَ، ويَجْلُبون منها ما لا يجِدُونه في بلادِهم، ولو كان في أَقاصي الأرضِ.

وحدَّثتُهُ عن السفنِ التي تَمْخُرُ في البحارِ، وتُبْحِرُ إلى البُلدانِ النائيةِ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَيْنا مُثَقَّلةً بِالأَشْرِبَةِ الفاخرةِ.

فدَهِشَ السيد مما سَمِع، وحَمْحَمَ صاهلًا: «إِن بِلادَكم غايةٌ في التَّعاسةِ؛ لأنَّ مَحْصُولَ أرضِها لا يكفي أهلِيها. وإِني لَأَعجبُ: كيف تُضْطرُّونَ إلى اقْتحامِ البحارِ الشاسعةِ، لتحصُلوا على شَرابِكُم؟ أليس في بلادِكم من الماءِ ما يكفِيكم؟»

فأجبتُهُ صاهلًا: «إِن مَحْصُولَ بلادي — منَ الغِذاءِ — يكفي ثلاثةَ أمثالِ قاطِنيها، أما الماءُ، فهو عندَنا كثيرٌ موفورٌ، ولكنّ حاجةَ أكثَرِ الأهلِينَ شَدِيدَةٌ إلى الأَشْرِبَةِ المرتقِيَةِ الفاخرةِ، التي يستخْرِجونها من عصيرِ الفاكهةِ وبعضِ الحُبوبِ، وهذه هِيَ الَّتِي أَعْنِيها، وقد أصبحَتْ لِسَوادِنا منَ الضَّرُورِيَّاتِ. ونحنُ نُرْسِلُ أكبر قسمٍ من محصولِ بلادِنا إلى البُلدانِ الأخرى، ونشترِي بِهِ منها تلك الأشربةَ المختلِفةَ وما إليها من أَدْواءِ الحضارةِ التي تُفسِدُ صِحَّتَنا، وتُعَرِّضُنا لكثيرٍ منَ الأمراضِ الفتَّاكةِ.»

ثم اسْتأنفتُ صاهلًا: «ولعلَّك — يا سيدي — تُدْرِكُ الآن السِّرَّ في فسادِ جَمْهرةٍ كبيرةٍ من الأهلِينَ الذينَ أَلِفُوا البَطالةَ والصَّعْلَكَةَ، فانتشرُوا يَعِيثُون في البلادِ فسادًا، وامتلأتِ السُّجُونُ باللُّصوصِ والغاشِّينَ، والْخَوَنةِ والمُداهِنين، وشُهودِ الزُّورِ والْمُلَفِّقين، والكذَّابين والهارِجين والْمُبْطِلِين. ومن هؤلاءِ نشأَتِ الأفكارُ الزَّائِفَةُ، والمذاهبُ الشَّاذَّةُ التي يُثْبِتُها أَرْذالُ المؤلِّفين وأَوْشابُهم — في أَسْفارِهم — لينصُروا باطِلًا، أو يُزْهِقُوا حَقًّا.»

(٣) جُنُونُ التَّرَفِ

ولْيُمَثِّلِ القارئُ لنفسِه مقدارَ ما عانَيْتُ — من الجهدِ — في التعبيرِ عن هذه الأغراضِ، التي لا عهدَ للسيد الجوادِ بِسَماعِ شيءٍ منها.



وقد حدَّثتُه أن في بلادِنا — من لذائذِ الأَشربةِ الصالحَةِ — ما يُغنينا عن الْأَشْرِبةِ الضَّارَّةِ، التي نَجلِبُها من أقاصي البلاد. ولكنَّ تَرَفَ الحضارةِ طالَما جرَّ الأهلِين إلى التَّهافُتِ على هذه الْمُهْلِكات القاتلةِ، التي تَذْهَبُ بعقولِهم، وتُضَعْضِعُ من حَواسِّهم، وتملأُ أخْلادَهم بالْخَيالاتِ والْأَوْهامِ الْجُنونيَّةِ، ثم تُسْلِمهُم — آخرَ الأمر — إلى نومٍ عميقٍ.

ثم اسْتَأْنفتُ صاهلًا: «ومنَ الْمُحَقَّقِ الذي لا يَمْتَرِي في صِحَّتِه كائنٌ كانَ، أنّ شارِبَ هذه المهلكاتِ يستيقِظُ من سُباتِه (نَوْمِه) الْعميقِ محْزونًا كاسِفَ الْبالِ، مُشَرَّدَ الْفِكْرِ، حائرَ الُّلبِّ، مجهودَ الأَعصابِ. ويُصْبِحُ — بعدَ زمنٍ قصيرٍ — نُهْزَةَ الأمراضِ، ونَهْبَ الآلامِ والْعِلَلَ، ويُعانِي — من مَتاعبِ الْحَياةِ وأسْقامِها — ما يُحَبِّبُ إليه الْموتَ في كلِّ ساعةٍ.»

ثم دَعانِيَ الحَديثُ إلى الاِسْتِطرادِ؛ فَذَكَرْتُ له ما يَنْعَمُ به الأغنياءُ من تَرَفٍ، وما يُعانِيهِ سَوادُ الشعبِ من مَشقّةٍ وجُهدٍ، ومثَّلْتُ له بنفسي فقلت له: «إنني أجِدُني — إذا جلستُ في بَيْتي — قد جَهَدْتُ جمهرةً كبيرةً من الصُّنَّاعِ والْعمالِ، حتى ظفِرتُ بما أنعمُ

به من لِباسٍ وأَثاثٍ. فإنَّ ثيابي التي أرْتَدِيها، لم تَصِلْ إليَّ إلَّا بعدَ أن اشْتركَ في إعْدادِها نحوُ مئَةٍ من الصُّنَّاعِ، والدارَ التي أسكنُها قدِ اشتركَتْ في بِنائها وتأْثِيثها أَلْفُ يدٍ. أمَّا ثِيابُ زَوْجَتِي، فقد تعاونَ على صُنعِها خمسةُ أمثالِ هذا العددِ، أو سِتَّةُ أمثالِه!»

(٤) عَواقِبُ الشَّرَهِ

وأَبَى عليَّ السيدُ الْجوادُ أن أسترسِلَ في حدِيثِي، حين رآني أَهُمُّ بوصفِ الأطباءِ والْممرِّضِينَ الذين وقَفوا جُهودَهْم على الْعنايةِ بالْمرضَى، وكنتُ قد حدَّثتُه — من قبلُ — أنَّ جمهرةً من الْملّاحِينَ الذين صَحِبُوني في رِحلتِي قد أَهْلكَتْهُمُ الأمراضُ الفتَّاكةُ.

وقد حارَ السيدُ في فَهْمِ ما أَعْنِيهِ بكلمةِ الْمرضِ. وقد شرحتُ له مَدْلُولَ هذه الْكلمةِ، فَلَمْ يَفهمْها إلَّا بعدَ عناءٍ طويلٍ.

فَحَمْحَم السيدُ الْجوادُ صاهِلًا: «إننا نُدرِكُ أن الْجيادَ التي تَدْنُو مِنَ الْأَجَلِ، تشعرُ — قبلَ انتهاءِ حياتِها بأيامٍ — بشيءٍ منَ الضَّعفِ والتَّثاقُلِ، ثم تَمُوتُ. ورُبَّما جُرِحَ أحدُ الْجِيادِ مرةً، فشعرَ بآلامِ الْجُرحِ. أما فيما عَدا ذلك فلسنا نعرِفُ شيئًا من الأسْقامِ والْعِللِ التي تَصِفُها لي. لقد خُلِقْنا أَصِحَّاء، مَوْفُورِي الْقُوَّةِ، ولسنا نسمحُ لأنفسنا أن نُعَرِّضَ أجْسامَنا لمثلِ ما ذَكَرْتَهُ منْ عِلَلٍ. ولستُ أدْرِي: لِمَ تسمَحُونَ لأنفسِكم أن تتغذَّوْا بهذه الأمراضِ، وتُسْلِموا أجْوافَكم إليها راضِين مُختارِين! هذا عبثٌ، فكيفَ ارْتَضَيْتُمُوه؟!»

فأجبتهُ صاهلًا: «إنَّ الشَّرَهَ دائمًا هو مصدرُ النكباتِ، وباعِثُ الشرُورِ، وأُسُّ الأمراضِ؛ فإننا نخلِطُ في مأكلِنا ومشْرَبِنا، ونُدْخِلُ في مَعِدَتِنا ما يُؤذيها منَ الأطعِمَةِ الْمختلِفةِ الأَلْوانِ التي لا يُؤَلَّفُ بينها نِظامٌ؛ فتُفْسِدُ الأخلاطُ الْمُتَبايِنةُ نظامَ الْهَضْمِ. وما أكثرَ ما نَطْعَمُ قبلَ أن نَجُوعَ، وما أكثرَ ما نشربُ على غيرِ ظَمأٍ؛ فنحن نُدْخِلُ الطعامَ على الطعامِ، ونُتْبِعُ الشرابَ الشرابَ. ورُبَّما قطعْنا الليلَ أحيانًا ونحنُ نجرَعُ تلك الْأَشْرِبَةَ الضَّارَّةَ الْمُحْرِقَةَ — وبُطُونُنا خاوِيَةٌ — فتلَتهِبُ أَحْشاؤُنا، وتَفسُدُ مِعَدُنا، ويتعطَّلُ نظامُ الهضمِ؛ فتُمَزِّقُ الأسقامُ أجسادَنا، وتنتقِلُ جراثيمُها مع دِمائِنا إلى الْعُروقِ والشَّرايينِ، ونُعانِي منَ الْعِلَلِ والأمراضِ ما لا سبيلَ إلى حَصْرِه. ولقد عَدَّدَ الأَطِبَّاءُ أكثرَ من سِتِّمائةِ نوعٍ منَ الأسْقامِ والعِلَلِ: يتعرّضُ لها كلُّ عضوٍ من أَعضائنا. وهم يَسلُكون — في علاجِها — سُبلًا شَتَّى، يزعُمون أنها تَشْفِي من تلك الأدْواءِ الوَبِيلَةِ»

وكانَ مِنْ حَظِّي أنني طبيبٌ أعرِفُ من دَقائِقِ الطِّبِّ ما لا يعرِفُه غيرِي من عامَّةِ النَّاسِ، فكشفتُ للسيدِ الجوادِ ما أَعْلَمُهُ من أسْرارِ الدَّاءِ وطَرائِقِ الشِّفاء، كما ذكرتُ له عَواقِبَ الشَّرَهِ، وما يجرُّه على أصحابِهِ من النكَباتِ.

(٥) أدْواءُ المرْضَى

ثم وصفتُ للسيدِ الْجوادِ خَصائِصَ النباتِ، والمعادنِ، والصَّمْغِ، والزَّيْتِ، والقِشْرِ، والْمَحارِ، والأمْلاحِ، والنَّباتاتِ المائِيَّةِ، والثَّعابِينِ، والضَّفادِعِ السَّامَّةِ وغيرِ السَّامَّةِ، والعناكِبِ، والأسْماكِ، والعِظامِ، ولَحْمِ الموْتَى، والطُّيورِ، وكيف تَتَألَّفُ الأدْواءُ عندَنا من أشْتاتِ هذه الأخْلاطِ، ويُرَكَّبُ منها دَواءٌ كَريهُ الطَّعْمِ، خَبِيثُ الرائحةِ، لا يكادُ يَسْتَقِرُّ في الْمَعِدَةِ حتى تَمُجَّه في كراهِيَةٍ واشْمئزازٍ. وذكرتُ له أننا نُسمِّي هذا الدواءَ: مُقَيِّئًا، وأننا نلجَأُ إليه في عِلاج المرضَى الذي أَصابتهمُ التُّخَمَةُ، وأَضَرَّهُمْ الاِمْتِلاءُ؛ ليُفرِغُوا ما في بُطونِهم من مُهلِكاتٍ.

ووصفتُ له كيف نَحقُنُ المرضَى، لنَشفِيهَم من آلامِهم وأوْجاعِهم. ولم أَنْسَ أنْ أُحدِّثَهُ عنِ الأمراضِ الوهميّةِ التي يتخيَّلُها بعضُ المرضَى؛ فيخترعُ لها الأطِبَّاءُ ما يُناسِبُها من عِلاجٍ وَهْمِيٍّ. وذكرتُ له أنَّ أكثرَ من يُصابُ بهذه الأَدْواءِ هم النِّساءُ.

وحدثْتُه — فيما حدثْتُه — كيف يُجْمِعُ الأطباءُ غالبًا على رأْيٍ واحدٍ في تعليلِ المرضِ، وتَشْخِيصِ الدَّاءِ، وأنهم قَلّما يُخطِئون في ذلك، وكيف يُنَبِّئُون — في أكثرِ الأَحايِينِ — بخُطُورَةِ الدَّاءِ واسْتِفْحالِه، ودُنُوِّ أَجلِ المريضِ، والْيَأْسِ من شِفائِه، ولكنهم يَقِفُون أَمامَ الداءِ عاجِزين، مكْتُوفِي الأيدِي، ويُسْلِمون المريضَ إلى الموتِ يائِسِينَ، لا يستطيعون أن ينتشِلُوه من بَراثِنِ الدَّاءِ.

فإذا طرأَتْ أَحوالٌ مُفاجِئةٌ على الْمُحْتَضَرِ الذي يئسُوا من حياتِه، عاوَدَهُمُ الأَمَلُ في شِفائِه؛ فَراحُوا يَسقُونه من الدَّواءِ، ثم يُباهُون بأَنَّ فضلَ شِفائِه عائدٌ إلى الدواءِ الذي جَرَّعُوه إياهُ؛ حتى لا يتَّهِمَهُمُ الناسُ بالعجزِ، ولا يرتابُوا في تَكَهُّنِهِمُ الزَّائِفِ بعد ذلك.



وحدَّثْتُه أَنّ هؤلاءِ الأَطباءَ لا يَسْتَغنِي أَحَدٌ عنهم، لاسِيَّما الوزراءُ والحكامُ، والسّادةُ والأَغنياءُ.

(٦) أخلاقُ السَّاسَةِ

وكان السيدُ قد سألَنِي — في مُناسَباتٍ شَتَّى — عن معنَى الحكومةِ الدُّسْتُورِ، وما إلى ذلك منَ النُّظُمِ التي تَزْدانُ بها حَضارتُنا بينَ أُمَمِ العالَمِ أَجْمَعَ.

فلما سَمِع مني كلمةَ: الوزراءِ، سألني عما أَعنِيهِ بهذه الكلمةِ، وقال لي: «ما شَأْنُ «الياهُو» الذي أُطلِقَ عليه هذا الاِسْمُ؟»

فقلتُ له: «إِن الوزيرَ رجلٌ سياسِيٌّ، عظيمُ الخطرِ، لا يعرِفُ السُّرورَ وَلا الحزنَ، ولا يُحِسُّ الحُبَّ وَلا البُغْضَ، ولا تتطرَّقُ الشفقةُ وَلا الغَضَبُ إلى قلبِه لحظةً واحدةً، ولا تَصْبُو نفسُه إِلَى غيرِ الثَّروةِ والسُّلطانِ وألقابِ المجدِ والْفخامةِ؛ فإن هذه الْغاياتِ — هي وَحْدَها — مَناطُ أملِه، وَمَرْمى هِمّتِه. وهو لا يَنِي جاهدًا في السَّعْيِ إِلى تحقيقِها، وإِشباعِ تلك الرغبةِ الْجامِحَةِ الْمُلِحَّةِ الْقاهِرةِ. ومن خَصائِصه أَنْ يفتنَّ في تَحْوِيرِ الْكلامِ، وتَوْجِيهِه إِلى غيرِ ما وُضِعَ له، وتَحْمِيلِ الألفاظِ كلَّ معنًى منَ الْمعانِي، إلا الْمعنى الأصيلَ الذي تدلُّ عليه! وهو لا يُعْنَى بالصَّحِيح، ولا يَأْبَهُ للحقِّ. وهو إذا وصف أحدَ خُصومِه بالرجعيّةِ والتأخُّرِ، كان أولَ مُسْتَيْقِنٍ أَنّ خَصْمَهُ مِثالُ التقدُّمِ والتَّجدُّدِ! وإذا وعد وأكّد وَعدَه بمُحْرِجاتِ الأقسامِ ومُغَلَّظاتِ الأيْمانِ، انْهارَتْ آمالُ مَنْ وعَده، وأصبح على يقينٍ من

خَيْبَةِ مَسْعاهُ وحِنْثِ الْوَزِيرِ! وهو يبدأُ حياتَه بامْتِداحِ الفضائِل، وذَمِّ الرذائِل، والسُّخْطِ على الفسادِ الضَّارِبِ بأَطنابِه في البلاد، حتى إذا وصل إلى منصبٍ عالٍ، انْغمس فيما عابه من قبلُ، وسار سِيرَةً أخرى تتنافَى والمثالِ العالِيَ الذي كان يُقدِّسُه ويهتِفُ له متحمِّسًا. وهو بارعٌ في التَّخَلُّصِ من تَبِعَةِ أعمالِه، والهروبِ منها إذا جَدَّ الْجِدُّ! وله حاشيةٌ لا تنفَكُّ عن مصاحَبَتِه، والتأدُّبِ بأدبِه، ولا تَنِي عن التدرُّبِ على الوَقاحةِ والكَذِبِ، واقترافِ الدَّنايا والآثامِ؛ حتى تصِلَ — بفضلِ هذه الخِلالِ — إلى أعْلَى الْمَناصِبِ في الدولة.»

(٧) السَّراةُ والأعيانُ

وكان السيدُ الجوادُ قد سمِعني أتحدَّثُ — ذاتَ يومٍ — عن سَراةِ بلادِي وأعيانِها فحسِبَني أنْتَمِي إلى هؤلاء السادةِ، وأراد أن يهنِّئَني على ذلك — ولم أكُنْ راغبًا في هذه التهنئةِ التي لا أستحقُّها — فَحَمْحَمَ صاهلًا: «لستُ أشكُّ في شَرَفِ أُسْرتِك، وكَرَمِ مَحْتِدِك؛ لأن جَمالَك وقَسامتَك ونظافتَك تُمَيِّزُك عن دَوابِّ «الياهو» في بلادِنا، وإنْ كانت هذه الدوابُّ تفوقُك سرعةً ونشاطًا وقوةً. على أنك تمتازُ عنها بالْقُدْرَة على الكلامِ، كما تمتازُ عنها بالعقلِ الذي رفَع من قَدْرِك عندَنا.»

وقد أدركتُ من أحاديثِه ومُحاوَراتِه أنّ بينَ الجِيادِ طبقاتٍ تتفاوتُ أقدارُها: فالجوادُ الأَشهَبُ أو الأَشقرُ أقلُّ جمالًا وقَسامَةً منَ الجوادِ الأَحمرِ أو الأَزرقِ أو الأَسودِ، وليس للجيادِ الشُّهْبِ والشُّقْرِ منَ المزايا مثلُ ما لغيرِها منَ الجيادِ الأُخرى. ولهذا السببِ تَقضِي حياتَها كلَّها خادِمَةً لها، ولا تطمحُ نُفوسُها إلى أن تُصْبِحَ — يوما مَّا — في مَقامِ سادَتِها. وقد دَهِشتُ لذلك أشدَّ دهْشةٍ، ولم يَكُنْ يدورُ لي في الْحُسْبانِ.

وقد شكرتُ للسيدِ حُسْنَ رأيِه فيّ، وأكَّدتُ له أنني من أسرةٍ فقيرةٍ، لم تَسْمُ إلى مرتبةِ السَّراةِ والأَعيانِ، ولكنّ والدَيّ — مع هذا — قد أحسنا تعليمي، وقاما بتربيتي وتَثْقِيفِي خيرَ قِيامٍ.



ثم حدَّثتُه عن خصائِصِ السَّراةِ والأَعيانِ عندَنا، وقلتُ له صاهلًا: «إِن شبابَ هؤلاءِ النُّبلاءِ قد نُشِّئوا — منذ حَداثَتِهم — مُتَبطِّلِين مُترَفِين وقد أسلمتْهمُ البَطالةُ والترفُ إلى التَّبَلُّدِ والْجَهالةِ، وامتلأتْ نفوسُهم زَهْوًا وخُيَلاءَ وأنانِيَّةً، ومَلَكَ الْهَوَى زِمامَ أُمُورِهم. وهُمْ — على ذلك — معدُودُونَ من أشرافِ الدولةِ، وأُولِي الرأيِ فيها. ولا سبيلَ إِلى إِصدارِ قانونٍ، أو إِلغائِه، أو تعديلِه؛ إِلَّا إِذا أقرَّهُ أُولئك الْعظماءُ، الذين يُبرِمون قَضاءَهم فلا يَجْرُؤُ على نَقْضِه كائنٌ كان.»

الفصل السابع

(١) مَزايا الْجِيادِ النَّاطِقَةِ

لعلَّ القارئَ يدهَشُ مما قصصتُه عليه منْ مُحاوَراتٍ، دارتْ بيْني وبينَ السيدِ الْجوادِ الذي استطعتُ أن أُظْهِرَ له حقيقةَ جنْسِي في إخلاصٍ وأمانةٍ. ولم يكنْ منَ اليسيرِ عليّ أَن أَصِلَ إلى هذه الْغايةِ الْبعيدةِ؛ لأن السيدَ الْجوادَ لم يكنْ له بمثْلِ هذهِ الْحقائقِ عهدٌ، ولم يكُنْ يظنُّ أن الْفرقَ كبيرٌ بين دوابِّ «الْياهُو» في بلادِه، وبينَها في الْبلادِ الأُخرى، إن كان فيها شيءٌ منها!

على أنني كشفتُ من مزايا السادةِ الْجِيادِ وفضائِلها — في أثناءِ حِواري مع ذلك السيدِ — ما لم يكنْ يمرُّ بخاطِرٍ، ورأيتُها قد بَرِئَتْ منَ الْمفاسدِ الإنسانيةِ التي انغمسْنا فيها. وأظهرتْ لي تلك الْمحاوَراتُ آفاقًا جديدةً، لم يكنْ يُتاحُ لي معرفتُها لولا ذلك الْحِوارُ الذي بَصَّرني بها، ووَجَّهنِي إليها. فأصبحْتُ أرَى الأَشياءَ بغيرِ الْعينِ التي تَعَوَّدْتُ أَن أَراها بها، وصِرْتُ أحكمُ عليها أحكامًا مُناقِضَةً للأحكام السابقةِ التي أَلِفتُها.

وقد بذلتُ جهدِي في سَترِ نقائصِ إخواني من الأَناسِيِّ، غَيْرَةً على سُمعتِهم وشرفِهم.

وكان السيدُ الْجوادُ موفورَ الذكاءِ، راجحَ الْعقلِ. وكانت آراؤه التي يُبدِيها رشيدةً، وانْتِقاداتُه سديدةً. وقد تعلمتُ من حِوارِه كيف أحتقرُ الْكذِبَ، وأَمقُتُ اللَّجاجَ، وأُبْغِضُ الدِّهانَ والْمُخادَعَةَ. وبدتْ لِيَ الْحقيقةُ: محبوبةً جذابة، وأَصبحتُ أَشعرُ بإِجلالِها وتقدِيسها، وأَنساني شَغَفي بها كلَّ ما أَلقاه في سَبِيلِها من عَنَتٍ واضْطهادٍ، وأَصبحتُ أَستعذبُ الْجِهادَ في نُصرتِها، وأَبذلُ لها كلَّ ما أَملك.

وَلقد كنتُ أُوثِرُ أَن أُغْفِلَ الْعيوبَ وَالنقائصَ التي مُنِيَتْ بها بلادي؛ لأَن تعصُّبي لجنسي كان يدفعُني إلى ذلك. إلَّا أَنني لم أَقضِ في تلك الْبلادِ عامًا كاملًا، حتى أَلِفتُ طِباعَ أَهلِيها منَ السادةِ الْجِيادِ. وَأعجبتني سلامةُ أخلاقِهم، وَوفرةُ فضائِلهم، وَنفُورُهم من أَرْجاسِنا وَدَناياناا، وَبَراءَتُهم منَ التصنُّع، وَبُعدُهم عن التظاهر بالفضيلة؛ فقرَّرْتُ أَن أَقضيَ بقيةَ عمريّ بينَ ظهرانيهم، بعيدًا عن جالباتِ الْفسادِ وَالْغوايةِ وَالنِّفاق، التي تُهَيْمِنُ على النوعِ الإنسانيَّ في جميع الْبُلدان.

(٢) فَسادُ الطبائع

وَظللْتُ أُمَنِّي نفسِي بِتحقيقِ هذه الرغبةِ النبيلةِ، وَلكنَّ سُوءَ الْحظِّ، وَنكَدَ الطَّالِع، اللذين يأبَيانِ أن يفارِقاني طولَ حياتي، قد حَرَماني — في هذه الْمرةِ أيضًا — أن أظفرَ بدَرْكِ هذه الأمنيةِ الْعزيزةِ، كما سيرَى الْقارئُ فيما بعدُ.

لقد ذكرتُ للسِّيدِ الْجوادِ عُيُوبَ بني جِنْسِي من الْمتحضِّرين مُخَفَّفَةً، وَلم أَعْرِضْ عليه من شنعِهم ومَخازِيهم كلَّ ما أَعلمُهُ، وَاجْتزأتُ بالقليل عنِ الْكثير، وَتعمَّدتُ أَن أُشيرَ إلى الْهَنَواتِ، وَأَسْتُرَ الْعُيوبَ الْفاضحةَ، وَالْمُخزِياتِ الْقاتلةَ. وَلكنَّ السيِّدَ الْجوادَ كان لا يَتَسَمَّحُ — قِيدَ أُنمُلةٍ — وَلا يغفِرُ تلك الْهَنَواتِ، وَلا يعفو عن تلك الزَّلّاتِ التي عرَفها عن بني الإنسان.

وكان السيدُ لا تأخذُه في نُصرة الْفضيلةِ هَوادَةٌ وَلا رحمةٌ؛ فخُيِّل إِليَّ أَنني أَمامَ مُمْتَحِنٍ شديدِ الْقسوةِ. وَقد عرضتُ عليه أَنبلَ الْجوانبِ، وَأحسَن الوجوه، التي نفخَرُ بها في حضارتِنا. وَلم يكن في مَقدُورِي أن أفعلَ شيئًا غيرَ ذلك؛ فإن كلَّ حَيٍّ لا بدَّ له من أن يَحِنَّ إلى وَطنِه وَمَسْقَطِ رأْسِه، وَيغَارَ على سُمعةِ بَلَدِه وَساكِنيه، وَيدافعَ عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وَقد شَرُفتُ بِرُفْقَةِ السيدِ الْجوادِ زمنًا طويلًا، وَسَعِدْتُ بصُحْبتهِ — في خلالِ هذهِ الْمُدَّةِ — وَأَوْجَزْتُ في أَحاديثي ما وَسِعَني الإيجازُ، وَأَغْضَيْتُ عن كشفِ مَخازِينا وَأَرجاسِنا وَشنعِنا، مُكْتَفِيًا بإِجابتِه عن أَسئلَتِه كلما وَجَّه إليّ سؤالًا.

وَفي ذات يومٍ اسْتدعاني السيدُ إليه، وَأمرني أن أَجلِسَ على مسافةٍ قريبةٍ منه، وَهو شرفٌ لم أَحْظَ به من قبلُ، ثم حمحم صاهلًا: «لقد أنْعمتُ الْفكرَ في قصتِك، وأَطَلْتُ الرَّوِيَّة

والْفحصَ عما حدثتَني به عن نفسك وبلادِك وأهلِيها، وقد خرجتُ من ذلك كلِّه بنتيجةٍ لا تُرْضيكَ: فقد انتَهَيْتُ إلى أنَّكُمْ — على عِلَّاتِكم — لَسْتُمْ إلَّا دوابٌّ من فصيلةِ «الْياهُو» التي في بلادِنا، ولكنَّ حادِثًا — لا أستطيعُ أن أُدْرِكَ أسبابَه — قد أكْسَبَكُمْ ذَرَّةً ضئيلةً من العقلِ، وأبَى لكم غُرورُكم وضَلالُكم أن تنتفِعوا بهذه الذرّةِ، فآثرتم أن تُوَجِّهوها إلى الشرورِ والآثامِ، وأَبيْتُم أن تَصرِفوها في وُجوهِ النفعِ والْبِرِّ والْخيرِ. وثمةَ أَضَعْتُم الْمِيزَةَ التي وُهِبْتُموها، وافْتننتُم في خَلْقِ متاعبَ وضَرُوراتٍ لا حاجةَ بكم إليها، فضاعفتم بذلك مَطالِبَكم، وأَضعتم جُهودَكم، في تحقيقِ أَوْهامٍ اخْترعتُموها على غيرِ طائلٍ. أما أنت فليسَ في قدرتِكَ أن تُنْكِرَ أنكَ ضعيفُ الْجسمِ، وليس لك مثْلُ نشاطِ دوابِّ «الْياهُو» الْحقيرةِ في بلادِنا وسرعتِها وخِفَّتِها. ولقد رأيتُك تمشِي على قدميك الْخلفيَّتَيْنِ وحدَهما، مِشْيَةً مُضطربةً، ليسَ فيها رَشاقةٌ ولا خِفَّةٌ. وقد أَغفلتَ العنايةَ بمخالبك، حتى أصبحتْ عديمةَ الْجَدْوَى، لا تُغنيكَ في دِفاعٍ، ولا تعودُ عليكَ بفائدةٍ. وقد حَلَقْتَ لِحْيتَكَ، وجرَّدتَ ذَقْنَكَ منَ الشعرِ الذي ينبتُ عليها ليَقِيَها وَهَجَ الشمسِ وحرارتَها، ويحفظَها من تَقَلُّباتِ الْجو. وجُمَّاعُ الْقولِ أنك عاجزٌ ضعيفٌ لا حَوْلَ لك على الْعَدْوِ، ولا قُدْرَةَ لَكَ على تَسَلُّقِ الأشجارِ، كما يفعلُ إخوانُك من دوابِّ «الْياهُو» عندنا.»

(٣) غرائزُ الشرِّ

أما النُّظُم والشرائعُ والْقوانينُ التي اخْترتُموها لكم، فإنها عجزتْ عن إصلاحِكم، وتقويمِ زَيْغِكم؛ لأنكم مُجَرَّدونَ منَ العقلِ، مُسْتَهِينُونَ بالْفضيلةِ. ولو كان لكم مُسْكَةُ عَقْلٍ، لَما رَكَسْتُمْ أنفسَكم في الدَّرْكِ الأوْهَدِ؛ لأن الْعقلَ وحدَه كفيلٌ بإِسعادِكم، وتسديدِ خُطُواتِكم.

وليسَ في قدرتِك أن تزعُمَ أنكم سُعداءُ. فإذا أقررْتَني على رأيي، فلا مَعْدَى لك عنْ الاِعترافِ بأنكم قد حُرِمتُم الرُّشْدَ والسَّدادَ.

ولقد عجِبتُ لإِصرارِ السيدِ الْجوادِ على هذا الْحُكْمِ، بعد أنِ اخترعتُ لبني جنسي فَضائِلَ ومزايا — لا أَصْلَ لَها — لِأُحَسِّنَ رأيَهُ فيهم، ولكنه أَبَى إلَّا أن يُصِرَّ على رأيه. وقد عَرفتُ الأسبابَ التي دعَتْه إلى هذا الإصْرارِ، حِينَ أَفْضَى بها إليَّ فيما يلي. قال صاهِلًا: «لقد رأَيتُك تُشْبِهُ دوابَّ «الْياهُو» عِندنا في جميع أجزاءِ جسمِك، إلَّا في الْقليلِ النادرِ منها.

وهذا الفرقُ الْقليلُ لا ينفعُك، بل يَضُرُّك؛ لأنه محسوبٌ عليك، وليسَ لك. فمَا بينكما فرقٌ إلا في القوةِ والنشاطِ والسرعةِ والْمخالبِ، وهي تَرجَحُك في هذه الْمزايا كلِّها. أما عاداتُكم وأَعمالُكم وغرائزُكم التي وصفتَها لي وحدَّثتَني بها، فهي تُماثلُ عاداتِ هذه الدوابِّ — الْمُماثلَةِ لك — كلَّها.»

ثم استأنف صاهلًا: «إن دوابَّ «الْياهُو» في بلادِنا تمتازُ — من سائرِ الدّوابِّ الأخرى — بأنها مُتَباغضةٌ مُتنافرةٌ، لا يأْتِلفُ منها اثنانِ حتى يختلِفا. وهي مشهورةٌ بحِقْدِها وبَغْيِ بعضها على بعضٍ. وكُلُّ دابةٍ من هذه الدوابِّ تَمْقُتُ أَبناءَ جنسِها، أكثرَ مِمَّا تمقتُ أيَّ دابةٍ أُخرى. ولقد كنتُ أَظُنُّ أَنَّ مصدرَ هذا التنافرِ هو بَشاعةُ منظرِكم، وقُبْحُ هيئتِكم، وإن كنتم لا تعترِفونَ بذلك. ولقد أَحسَنتَ إذْ غطَّيتَ جسْمكَ بهذه الثيابِ التي اخترعتُموها اختراعًا؛ لتُخْفُوا الْقُبْحَ، وتَسْتُروا الدَّمامَةَ التي ينفِرُ منها الذَّوْقُ، ولا يُطيقُ رُؤيَتها أحدٌ.»

ولما انتهى السيدُ من كلامِه أدركتُ أَن أَسبابَ النِّزاعِ والشِّقاقِ والانقِسامِ بينَ دوابِّ بلادِهم ودَوابِّنا — معشر «الْياهُو» — واحدةٌ لا تكادُ تتغيرُ.

(٤) بَنُو «الْياهُو» وبَنُو «آدم»

ثم اسْتأنفَ السيدُ الْجوادُ صاهلًا: «ومن دلائلِ الشَّرَهِ الذي خُصِصْتُم به، يا معشرَ «الْياهُو» — في بلادِنا وبلادِكم على السَّواءِ — أننا إِذا أعْطَيْنا خمسةً من هذه الدوَابِّ طعامًا يكفِي خمسين دابةً منها، لم تقنعْ به، ودفعها الشَّرَهُ إلى طلبِ الْمزيد، ودبَّ بينها الشِّقاقُ والنُّفورُ، وَأَبَى كلُّ فردٍ منها إِلَّا أن يستأْثِرَ وحدَه بكلِّ ما قدَّمْناه منَ الْغِذاءِ. وما أَسرعَ ما تحُلُّ الْجَلَبَةُ والصَّخَبُ محلَّ الْهدوءِ والسُّكُونِ. وثمةَ تُغيرُ كلُّ دابةٍ على الأخرى فتأخذُ بشعرِها، وتَعْرُكُ أُذُنَها، ولا يَحْلُو لإحداها أن تأكلَ إلَّا ما تَهُمُّ غيرُها بأكلِهِ. وقد أَلِفْنا منها هذه الأنانيَّةَ الْمَمْقُوتةَ؛ فلم نَسْمَحْ لَها أن تأكلَ خارجَ حظيرتِها إِلَّا إذا حرسها خادمٌ من خدمِنا. فإذا عادتْ إلى الْحَظيرةِ ربطْنا كلَّ دابةٍ منها على مسافةٍ بعيدةٍ من الأخرى؛ حتى لا تَحْدُثَ بينهما معركَةٌ حامِيَةُ الْوَطِيسِ.

فإذا ماتت إحدَى البقرِ — لِكِبَرِ سِنِّها — أو تردَّتْ (سَقَطَتْ) ولم يُبْصِرْ بها أحدٌ منَ الْجيادِ، أَسرعتْ إليها دوابُّ «الْياهُو» القريبةُ منها، وتَهاتفتْ على تمزيقِ جسمِها، وآثرتْ كلُّ دابَّةٍ أنْ تَنْفَرِدَ بها وحدَها، ونَشِبَتْ بينها معركةٌ دامِيَةٌ تُماثِلُ الْمعارِكَ التي حدَّثتَني بِنُشُوبها في بلادِكم، ولن تنجَلِيَ الْمعركةُ إلا بعدَ أن تَنْهَكَ قُواها، وتُسْفِرَ عن كثيرٍ منَ الْجَرحَى. وقَلَّما تنتهي الْمعارِكُ بالْقتلِ؛ لأنها لا تملكُ من وَسائلِ الْهلاكِ مثلَ ما تملِكون ولم تَخْترِعْ — مِنْ أَدَواتِ الْإبادَةِ — مِثْلَ ما تَخْتَرِعُونَ.

وكم رأَينا المعارِكَ تنشَبُ — من غيرِ سببٍ يدعُو إلى نُشوبِها — بين هذه الدوابِّ التي تعيشُ في أصْقاعٍ مُتباعِدَةٍ. فلا يمُرُّ قطيعٌ من غُرَباءِ «الْياهُو» على قطيعٍ آخرَ، حتى يَدِبَّ بينهما النُّفورُ والْبُغْضُ، وتبدأَ الحَربُ بلا رحمةٍ. وهذه الدوابُّ لا تتركُ فرصةً واحدةً تُمْكِنُها منَ الإغارةِ على غيرِها منْ قُطْعَانِ «الْياهُو» إلا انْتَهَزَتْها لِشِفاءِ أحْقادِها وإرْوَاءِ غُلَّتِها. وهي تَرْقُبُ عَوْدَتَها — في كَمِينٍ خَفِيٍّ — ثم تَنْقَضُّ عليها، وتأخذُها على غِرَّةٍ! فإذا أَخْفَقَتْ مُؤامرتُها، وَسَلَكَ أعداؤها جهةً أُخْرى، عادتِ الدَّوابُّ الْخبيثةُ خائبةً من حيثُ أَتَتْ، ولم تسْتطِعِ الْبقاءَ هادئةً مُطمئنّةً. ولا تهدأُ ثائرتُها إلَّا إذا أثارَتْ على نفسِها حربًا طاحِنةً، كتلك الحَربِ التي تُسَمُّونها: «حَرْبًا أَهْلِيَّةً»!»

(٥) الأحْجارُ الكريمةُ

ثُمَّ حَمْحَمَ السَّيِّدُ الْجَوادُ صاهِلًا: «وقد رأَيتُ — في بلادِنا — أحْجارًا بَرَّاقَةً مُتلألئةً، مختلفةَ الألْوانِ، مَبْثُوثَةً في بَعْضِ الأنْحاءِ، وهي أَحْجارٌ لا خَطَرَ لها، ولا فائدةَ منها. ولكنَّ هذه الدوابَّ تَهِيمُ بحُبِّها هُيامًا، وتبحَثُ عنها جاهِدَةً، وتُخْرِجُها من مَخابئِها ومَكامِنِها في الأرضِ، ولو كانتْ في غَوْرٍ سَحِيقٍ. وَتَظَلُّ تَحْفِرُ الأرضَ أيَّامًا عدةً، لا تَنِي ولا تَكِلُّ وَلا تَفْتُرُ عَزيمتُها أو تظفرَ بها؛ فتحمِلَها إلى حَظائرِها، وَتُجِيلَ أبصارَها فيها، وتُخْفِيَها — عن رِفاقِها — في أماكِنَ مَسْتُورَةٍ، لا يهتدِي إليها كائنٌ كانَ. وكَأَنَّما ترى فيها كَنْزًا نفيسًا جَدِيرًا بالصَّوْنِ والرِّعايَةِ.»

ثم استأنفَ السيدُ الْجوادُ صاهلًا: «ولقد كنتُ أَحارُ في تعليلِ هذا الْحِرصِ، وتعرُّفِ أسبابِ هذا الشَّرَهِ، الذي لا معنَى له، ولا داعِيَ إليه. وقد بحَثتُ جاهِدًا لعلِّي أعرفُ فائدةَ

هذه الْأَحْجارِ البرَّاقةِ، وأيُّ نفعٍ يعودُ على هذه الدوابِّ منها؛ فلم أُوَفَّقْ إلى معرفةِ شيءٍ من ذلك. أما الآن فقد أدركتُ — من حِوارك ومُناقشتِك — السببَ، وعَرَفْتُ حَلَّ اللُّغزِ الخَفيِّ، وأيقنتُ أن البُخْلَ الذي عَزَوْتَهُ إلى دَوابِّكُم الإنسانيةِ، هو مصْدرُ ما مُنِيتُم بِهِ من حِرْصٍ عَجيبٍ.»

ثم حَمْحَمَ صاهلًا: «ولقد عَنَّ لِي — ذاتَ يومٍ — أَن أتعرَّفَ مَدَى حِرْصِها على تلك الأحجارِ البَرّاقةِ؛ فانتهزتُ منها غفلةً، ونقلتُ — في أَثنائِها — كومَةً من حِجارتِها. ولما عادَتِ الدَّابةُ القذرةُ التي خَبَأَتْها في حظيرتِها، بَحَثَتْ عَنْ كَنْزِها فلم تَجِدْهُ. ولم تُوقنْ أنه ضاع ولم يبقَ له أثرٌ، حتى سِيءَ وَجْهُها، وَجُنَّ جُنونُها، وَثارَتْ ثائِرَتُها، وملأتِ الْجَوَّ صَخَبًا وصِياحًا، وكاد الغمُّ والألمُ يقتُلانِها. واجتمعتِ الدوابُّ الأُخرى — من «الْياهُو» — ولم تَرَ الدابةُ أَخَواتِها من بَناتِ «الْياهُو»، حتى انقضّتْ عليها، وظَلَّتْ تَعَضُّ مَن يُدَانِيها وتجْرحُ مَن يقتربُ منها، حتى أَضْناها الْجُهدُ وبرَّحَ بها الألمُ، فأَسْلَماها إلى الذُّهولِ. ولم يَسْتَسِغْ هذا «الْياهُو» طعامًا، بعد أن فقدَ الحِجارةَ البرَّاقةَ: فكَفَّ عنِ الطعامِ والشرابِ، ولم تَطْعَمْ عَيْناهُ الكَرَى، وأصبح لا يُطيقُ العملَ، ولا يَهْدَأُ له بالٌ. فأمرتُ بعضَ خدمي أن يرُدَّ الأَحجارَ البرّاقةَ إلي مخبئِها الذي أخذتُها منه. ولم يقعْ نظرُ «الْياهُو» عليها، حتى تَمَلَّكَهُ الفرحُ، واسْتولى عليه الابتِهاجُ، وعادَ إليه أُنْسُه وَمَرَحُه. وكأنما خَشِيَ أن يُحْرَمَ الْأَحْجارَ — مرةً أخرى — فَدَفَنَها في مكانٍ آخرَ؛ حَتَّى لا يهتديَ إليها أحدٌ. ولقد أثبتَتْ لِي الْمشاهَداتُ والتجارِبُ أَنَّ أكثرَ المعارِكِ العنيفةِ الْوَحْشِيَّةِ — التي تَنْشَبُ بين هذه الدوابِّ — إنَّما تقعُ في الحقولِ والْمُرُوجِ التي تكثُرُ فيها تِلكَ الْأَحْجارُ البرَّاقةُ؛ لأَنَّ دَوابَّ «الْياهُو» تُكثِرُ منَ التردُّدِ عليها من جميعِ الْأنحاء. وكثيرًا ما رأَيتُ دابَّتَيْنِ تكشِفانِ عن حَجَرٍ بَرَّاقٍ؛ فلا تظفَران به حتى يَدِبَّ بينهما دبيبُ الخلافِ. وَثَمَّ يشتدُّ النِّزاعُ فينقلبُ إلى حَرْبٍ؛ لِأن كُلًّا منهما تُريدُ أن تَسْتَأْثِرَ به. ثم يجيءُ ثالثٌ — بعدَ أن جَهَدَهُما الْعِراكُ — فيأخذُ الحجَرَ منهما عَنْوةً واغْتصابًا. وما أقرَبَ الشَّبَهَ — يا صاحبي — بين هذا وبين ما تَصْنَعُونه في بلادِكم!»

(٦) جَشَعُ «الْياهُو»

ولَمْ أَستطِعْ أن أُخَطِّئَه فيما ذهب إليه، وأَفْحَمَتْنِي حُجَّتُهُ وَسَدادُ مَنْطِقِه فَلَمْ أُحِرْ جوابًا، وعَجَزْتُ عنِ الدِّفاعِ عن بَنِي جِنْسِي إزاءَ التُّهَمِ الشَّنْعَاءِ التي أَلْصَقَها بهم.

وتكشَّفَ لي صَوابُ رأيِه، وعدالةُ حُكْمِه؛ حينَ تمثَّل لي ما يَفْقِدُه المتخاصِمان منَ المالِ، إذا تنازَعا على شيءٍ بِعَيْنِه واحْتكما إلى الْقضاءِ؛ لأنَّهما لَنْ يظفَرا إلَّا بفِقْدانِ ما تنازعا عليه!



ثم اسْتَطْرَدَ السيِّدُ الْجوادُ صاهلًا: «وَلستُ أرى في تلك الدَّوابِّ خَلَّةً أدعَى للمَقْتِ، وَأَجْلَبَ للكراهِيَةِ وَالاحتقارِ، من خَلَّةِ الْجَشَعِ التي خُصَّتْ بها من بينِ دَوابِّ الأرْضِ جمعاءَ. إنها تأكلُ — في شَرَهٍ وَنَهَمٍ — كلَّ ما تجدُه في طريقها منَ الْحشائشِ، وَجُذورِ الْفاكهةِ، وَالْجِيَفِ العَفِنَةِ. وَربما جمعتْ بينَ هذه كلِّها، وَخلطَتْها معًا، ثم أقبلتْ على هذه الأخْلاطِ تأكلُها وَتستَمْرِئُها دُونَ أَنْ تَتَقزَّزَ منها. وَمن عَجائِب ما رأيتُه أن تلك الدَّوابَّ تُؤْثِرُ ما تَسْرِقُه أَو تخطَفُه أو تَغْتَصِبُه منَ الطعام — ولو كان تافِهًا حقيرًا — على أَشْهَى الأغذيةِ التي نُقَدِّمُها إليها. وَهي تأكلُ من تلك الأسْلابِ وَالْغنائِم أكْلًا لَمًّا، وتَظَلُّ تَحْشُو أجْوافَها بالطَّعامِ حتى تكادَ بُطونُها تنفجرُ، وَثَمَّ تُعْجِزُها التُّخَمَةُ عنِ الْحركةِ. وَقد هَدَتْها الْغرِيزةُ إلى نَوْعٍ منَ الْجُذورِ تأكلُه — إذا تَخِمَتْ — فلا تلبثُ أن تُفرِغَ ما

في بُطُونِها مِنَ الطَّعامِ. ورأيتُ هذه الدوابَّ تستمرئُ نَوْعًا غريبًا منَ الْجُذورِ، يمتازُ عَمَّا عَداهُ بوَفْرةِ الدَّسَمِ. وَهو نادِرُ الوجودِ في بلادِنا، وَلكنها تبحثُ عنه جاهدةً، حتى تَعثُرَ عليه، فتَتَحَلَّبَهُ مسرورةً مبتهِجةً. ولا تكادُ تفعلُ ذلك حتى يبدُوَ الْخَبالُ على سِيماها، ويحدثَ لها مثلُ ما يحدثُ لكم من جَرَّاءِ تلك الأشربةِ الْمُهْلكةِ السّامّةِ التي حدَّثْتَنِي عنها. وهذه الْجذورُ العجيبةُ تُحدِثُ آثارًا مُتَناقِضَةً؛ فلا يتحلَّبُها «الْياهُو» حتى يَنْتَشِيَ، ويبدوَ السرورُ على أساريرِه — أولَ الأمرِ — فيتودّدَ بعضُهُ إلى بعضٍ ويتعاطفَ، ثم لا تلبثَ الدَّوابُّ أن تَتَجَهَّمَ وُجُوهُها، وَتَتَقلَّصَ شِفاهُها، وتشتبكَ في صِرَاعٍ عنيفٍ؛ فيُمزِّقَ بعضُها أجسادَ بَعْضٍ، وَتملأَ الدُّنيا صُراخًا وجَلَبةً، ثم ترتمِيَ — آخرَ الأَمرِ — في الوَحَلِ، وتُصْبِحَ في حالٍ يُرْثَى لها. وقدِ امْتازَتْ دَوابُّ «الْياهُو» — من بين دوابِّ الأرضِ كلِّها — بالتعرُّضِ للأَمراضِ الْمختلفةِ، والْعِلَلِ الفتّاكةِ.»

وصدقَ السيدُ الْجوادُ في مُلاحظَتِه. ولكنني رأيتُ أنَّ الأمراضَ التي يتعرضُ لها «الْياهُو» في تلك الْبلادِ النائيةِ، أقلُّ من أمْراضِ الْخيلِ في بلادِنا. وهي لا تَنْجُمُ من سُوءِ الْمُعاملةِ، أو قِلَّةِ العنايةِ، بلْ هِيَ وَلِيدَةُ ما اخْتَصَّتْ به منَ الضَّراوَةِ والشَّرهِ.

وَقد أَطْلَقَ الجيادُ على كل مرضٍ يُصابُ به أيُّ حيوانٍ في بلادِهم اسمَ: «مَرَضِ الْياهُو»؛ لأنهم يروْنَ أن مصدرَ العللِ والأمراضِ يَرجِعُ إلى دَوابِّ «الْياهُو» الْخبيثةِ.

فإِذا اكْتَظَّتْ مَعِدَةُ دابةٍ من دوابِّ «الْياهُو»، فأصابتْها التُّخَمَةُ أرْغَمُوها على تَجَرُّعِ أخْلاطٍ من أرْواثِهِمْ وأبْوالِهم، لِتُفْرِغَ ما في بَطْنِها من خَبائِثِ الأَطعمةِ، وهو علاجٌ لَها ناجِعٌ سريعُ الأَثرِ.

وما أَجْدَرَ الأَطِبَّاءَ — في بلادِنا — أن يُرغِموا كلَّ جَشِعٍ شَرِهٍ على تَجرُّعِ مِثْلِ هذا العلاجِ حتى يُقْلِعَ عن عادَتِهِ المرذولةِ!

(٧) الزَّعامَةُ

أَمَّا عُلُومُنا وفُنونُنا وحكومتُنا وصناعتُنا وما إلى ذلك؛ فقد قَرَّرَ السيدُ الجوادُ أن وجهَ الشبهِ فيها بيننا وبينَ «ياهو» بلادِه ضعيفٌ جدًّا، أَوْ مُنْتَفٍ لا وُجودَ له.

ولم يكُنْ يَعْنِيه من وُجُوهِ الشبهِ والْمُماثلةِ إلَّا ما هو شَرِكَةٌ بيننا وبين تلك الدوابِّ، منَ العناصرِ الْجوهريةِ والحوافزِ الطبيعيةِ والغرائزِ الأَصيلةِ.

وقد أخبرني السيدُ أن بعضَ الفُضُولِيِّينَ من الجيادِ قد راقَبُوا أحوالَ هذه الدوابِّ، ورأَوْا أَنَّ لكلِّ سِرْبٍ من أَسْرابِها — غالبًا — زعيمًا يترأسُ الْقطيعَ. وَيمتازُ هذا الرئيسُ عَنْ سائر الدوابِّ بأنه أَوْفَرُها دَمامَةً، وَأَشَدُّها حماقةً، وَأَشْنَعُها لُؤْمًا.

وَلهذا الزعيم — عادةً — نديمٌ مُقرَّبٌ إليه، يَصْطَفِيه مِن بين الدوابِّ، لأَنَّهُ أَدْنَى إليه شَبَهًا، وَأَقربُ إلى حماقتِه وغَبائِه.

وَمن خَصائصِ النَّدِيمِ أَن يَهْرِجَ للرئيسِ، ويَلْعَقَ أَرْجُلَه، ولا يَدَّخِرَ جهدًا في تَمْليقِه ومُمَاسَحَتِه، فيكافِئَه الزعيمُ بقطعةٍ من لحم حِمارٍ، جَزاءً له علَى تفَانِيه في إخلاصِه وتَمْلِيقِهِ!

وَيتمتعُ هذا النَّديمُ بمَقْتِ جميعِ أَقْرانِه، وَكراهِيَتِهِم وَاحتقارِهم! وَهو لا يُطيقُ الْبُعْدَ عن رئيسِه، وَلا يزالُ يَنْعَمُ بِثقَتِهِ وعَطفِه، حتى يظهرَ له مُنافِسٌ يَبُزُّهُ في قُبْحِ الشكلِ، وَخُبْثِ السَّرِيرَةِ، وَدمامةِ الوجهِ؛ فيُدنِيَه الرئيسُ من مجلسِه، وَيقرّبَه إليه، ويُقصِيَ النديمَ الْأولَ.

وَلا يكادُ النديمُ يفقِدُ عطفَ سيدِه وَثقتَه، حتى تَتَأَلَّبَ عليه نِساءُ الْقَطِيعِ ورِجالُه — من أَحْداثٍ وشُيوخ — فَيَنْهالُوا عليْهِ لَكْمًا وَضَرْبًا، ورَكْلًا وَنَطْحًا، بأَيْدِيهِم وأَرْجُلِهم ورُءُوسِهم، ثم يُفرِغوا عليه كلَّ ما في بُطُونِهم من أَقْذارٍ.

ويكونُ ذلك الْعقابُ خيرَ جَزاءٍ عادلٍ يَلْقاهُ النَّدِيمُ السَّاقِطُ.

ثم حَمْحَمَ السيدُ الْجوادُ صاهلًا: «ولستُ أَدْرِي إلي أيِّ مَدًى ينطبقُ هذا الْمثَلُ على ساداتِكم ونُدَمائِهِمُ الْمُصْطَفْينَ في بلادِكم!»

وَشعَرتُ بِمَرارَةِ النَّقْدِ الَّلاذِعِ، وقَسْوَةِ التَّهَكُّمِ الْفاتِكِ، الذي يسخَرُ منَ الذكاء الإنسانيِّ، ويكشِفُ عن عَوارِه وضعفِه، ويجعلُه أقلَّ مَنْزِلًا مِنْ كَلْبِ الصَّيْدِ؛ فَهُوَ إنْ قَلَّ عَنًّا ذَكاءً، لا يُخدَعُ في الاهتداءِ إلى كلبٍ أَوْفَرَ منه فِطْنَةً، وأَكْثَرَ دُرْبَةً، يُرْشِدُه إلى طَرائِقِ الصيدِ، ويَهْدِيه دون أن يُغَرِّرَ به، أو يتنكَّرَ له!

ثم حدَّثِني السيدُ عنِ الْمُشاجَراتِ التي تنشَبُ بين ذُكورِ «الْياهُو» وإناثِه، واتَّخَذَ منها دليلًا على خِسَّةِ «الْياهُو»، ودناءتِه، وبَلادَةِ طبعِه. وَلم أكنْ قد حدثتُه عمَّا يقعُ في بلادِنا من أمثالِها.

وَأدهشَه — فيما أدهشَه من صِفاتِ «الْياهُو» — أنه مَفْتُونٌ بالْقَذارةِ، هائِمٌ بالأرْجاسِ، وَأن أيَّ جِنسٍ من أجناسِ الدوابِّ لا يُدانِيهِ في هذه المنزلةِ.

وَلَقَدْ وَدِدْتُ لوْ كانَ في تِلْكَ الْبلادِ خنازيرُ؛ لِأُدلِّلَ للسيدِ علَى أَنَّ تِلْكَ الدَّوابَّ لا تَقِلُّ في قَذارَتِها عنِ «الْياهُو». وَما كانَ أَجدرَه بالاِقتناعِ بِصِحَّةِ رأيي إذا رآها وَهي تَتَمرَّغُ في الوَحَلِ — كما يفعلُ «الْياهُو» — وَتلتهِمُ الأَخْباثَ والْجِيَفَ.

وَلكنَّ الْخنازيرَ — لسوءِ الْحظِّ — لا وُجُودَ لها في تلك الْبلادِ.

ثُمَّ أَفْضَى إليَّ السيدُ بعجيبةٍ أُخرى من عجائب «الْياهُو»، التي شاهَدَها خَدَمُه — ولم يَرَها بعينِه — وهي أنّ بعضَ «الْياهُو» يَحْلُو له أَحيانًا أَن ينتحِيَ ناحيةً قَصِيَّةً، حيث يرقُدُ وَيُلْقِي بنفسِه في الثَّرَى، ويَصِيحُ باكِيًا مُعْوِلًا، ولا يُطِيقُ أَنْ يَرَى أَحَدًا من أَقْرانِه يَدْنُو منه.

وَالْعجيبُ أَنّ هذا «الْياهُو» سَمِينٌ شَبْعانُ رَيَّانُ، لا يُعْوِزُه غِذاءٌ ولا شَرابٌ. ولم يهتدِ أَحدٌ إلى سِرِّ الْعَوِيلِ، وَمصدرِ الأَلم. وَلكنَّ الْخدَّامَ منَ الْجيادِ الْأَذكياءِ فَطَنوا إلى علاجِ هذا الداءِ، فأصبحُوا كُلَّما ظهرتْ أَعْراضُه على أَحدٍ منَ «الْياهُو» أَقْحَمُوه في عملٍ شاقٍّ؛ فلا يلبثُ أَن يعودَ إلى هُدُوئِه، ويَثُوبَ إليه رُشْدُه.

وَظَلَلْتُ أُصْغِي إلى هذه الملاحظاتِ القاسِيَةِ، متألِّمًا صامِتًا، لا أُحِيرُ جَوابًا؛ لِأنني أُحِبُّ أَبناءَ جِلْدَتِي، ولا أَجِدُ ما أَدْفَعُ به عنهم غائِلَةَ النَّقْدِ الْأَليمِ.

وتَكشَّفَ لِي — حينئذٍ — أَن هذه الْحالَ التي يَصِفُها السيدُ الْجوادُ، لا تُصِيبُ — عادةً — إلَّا الْمُتْرَفِينَ منَ الأَغنياءِ الْكُسالَى.

ورأَيتُ أَن هذا العلاجَ هو — على الْحقيقةِ — أَجْدَرُ دَواءٍ لِأمثالِ هؤلاء الْمُتَبَطِّلين.

ثم أَفْضَى إليَّ السيدُ بما يأخُذُه على نِساءِ «الْياهُو»؛ فكأَنَّما كان يُحدِّثُني عما أَعرِفُه من غَرائزِ النِّساءِ عندَنا.

فاستولتْ عليَّ الدَّهشةُ والْحزنُ، لِما رأَيتُه منَ التَّدَلِّي والاِرْتِكاسِ في طَبائِعِ النَّاس، على اخْتِلافِ الْأَلْوانِ وَتَبايُنِ الْأَجْناسِ.

الفصل الثامن

(١) في حَظائرِ «الْياهُو»

لَعَلِّي أعرَفُ بالطبيعةِ الإنسانيةِ من ذلك السيدِ، أو — على الأقلِّ — هذا هو ما أفْتَرِضُه! فَإذا صَحَّ ذلك، فَمِنَ الْيسيرِ عليَّ أنْ أُطَبِّقَ آراءَهُ على بَنِي جِنْسِي، وَأتَعرَّفَ مِقدارَ ما تَحْوِيهِ مِنْ صِدْقٍ.

وقد خُيِّلَ إليّ أنَّني قادِرٌ على أَنْ أكْشِفَ عن خَصائِصِ «الْياهُو» الأُخْرَى، إذا سَمَح لِي السَّيِّدُ بِمُراقَبَتِه في حَظائِره ومُرُوجِه.

وقد أجابَنِي السيدُ إلى طِلْبَتِي؛ لِأنَّه مُقْتَنِعٌ بكَراهِيَتي ومَقْتِي لهذا الْجنسِ الخبيثِ. ولَم يَخْشَ أنْ أَتأَثَّرَ هذه الدَّوابَّ في عاداتِها وَأخْلاقِها. وَلكنه رَأَى أنْ يَحُوطَنِي مِنْ مَكْرِها، ويَحْمِيَني من أَذِيَّتِها، فوَكَلَ بِي جَوادًا كبيرًا أَشْقَرَ — من خَدَمِه — لِيَذُودَ عَنِّي مَكْرَ «الْياهُو» وأَذاهُ.

ولم أكُنْ قد نَسِيتُ إساءةَ هذه الدوابِّ إليَّ حين حَلَلْتُ الجَزِيرة. وَلم أَنْسَ أنَّنِي تعرَّضْتُ لأَذاها — فيما بعدُ — مَرَّتَيْنِ أَو ثَلاثًا. وقَدْ كادَتْ تَفْتَرِسُني حينَ رأتني بعيدًا عنِ المنزلِ، لوْلا أَنني أُنْقِذْتُ من بينِ مَخالبِها بِمُعْجِزَةٍ خارِقَةٍ. وكنتُ أُرَجِّحُ أَنَّ دوابَّ «الْياهُو» تَعُدُّنِي من أَقْرانِها، وتَرَى فِيَّ مَثَلًا من أَبناء جنسِها؛ فكشفتُ عن صدري، وحَسَرْتُ عن ذِراعَيَّ؛ لِأُقْنِعَها أنني على شاكِلَتِها. فاقْتَربَتْ مني، وَصارَتْ تُقَلِّدُ حرَكاتي وإشاراتي، هازِئَةً، ساخِرَةً، كما تفعلُ الْقِرَدَةُ. وَلم تستطعْ إيذائي، لأَنها رأَتْني في كَنَفِ الجوادِ الأشْقرِ.

ثم أَمسكتُ بِطفْلٍ صغيرٍ — لا يتجاوَزُ الثالثةَ من عُمُرِه — ولاطَفْتُه — جُهْدِي — وربَّتُّ كَتِفَهُ لِأُونِسَهُ وَأُسَكِّنَ من رَوْعِه (أُهَدِّئَ مِنْ فَزَعِهِ) فلم يَزْدَدِ الشَّيْطانُ الصَّغِيرُ إلَّا ثَوْرَةً وَهِياجًا؛ عَلا صُراخُه، وَظلَّ يَخْمِشُني بأظافرِه، ويَعَضُّني بأسْنانِه؛ حتى اضْطَرَّني إلى أَنْ أَتجهَّمَ له. فأسرَعَ سِرْبٌ منَ «الْياهُو» إليّ لِيُنقِذَه، فرأَى ذلك الصغيرَ يَعْدُو أَمامِي هارِبًا، وَرأَى الجوادَ الأَشقرَ إِلَى جانبي؛ فلم يَجْرُؤْ عَلى الدُّنُوِّ مِنِّي.

(٢) قَذارَةُ «الْياهُو»

وشَمَمْتُ رائحةً كَرِيهَةً مُنْتِنَةً، تنبعِثُ من تلك الدَّوابِّ، وهي أقربُ إلى رائحةِ الكَرْكَدنِ والثَّعْلَبِ، وإِنْ كانَتْ تَفُوقُهما بَشاعَةً ونَتْنًا.

وقدْ فاتَنِي أنْ أَذْكُرَ للقارِئِ — وَأَرْجُو أنْ يغفرَ لِي هذا النِّسْيانَ — أنني لم أُمْسِكْ بذلك الطفلِ الْخبيثِ، حتى لَوَّثَ ثِيابِي. وكان من حُسْنِ حَظِّي أنْ وجدتُ غَدِيرًا منَ الماءِ على مَقْرَبَةٍ مِنِّي، فبذلتُ جهدي في تنظيفِ الثِّيابِ؛ حتى لا يراها السيدُ الجوادُ — إذا عُدْتُ إليه — قَذِرَةً كَرِيهَةَ الرَّائِحَةِ.



وقد أقنعتْنِي الْمُشاهدةُ والاِختبارُ أن دوابَّ «الْياهُو» هي أقلُّ الدوابِّ صَلاحِيَةً للتعليم، لأنَّ كِفايتَها لا تَعْدُو جَرَّ الْمَرْكباتِ، وَحملَ الْأَثقالِ.

وعِنْدِي أَنَّ مَرَدَّ هذا النَّقْصِ عائِدٌ إلى خُبثِها وعِنادِها ولُؤْمِ طَوِيَّتِها؛ فهِيَ — عَلَى قُوَّتِها وشدةِ بأسِها — تُمَثِّلُ الْجُبْنَ وَالنَّذالَةَ والقسْوَةَ. وقد رأيتُ أَن ذَواتِ الشعرِ الْأحمرِ — من جِنْسَيْها: الذكورِ والإناثِ — هي أَشَدُّها حماقةً، وأَعظمُها قُوَّةً، وأوفرُها نشاطًا.

وَمن عادةِ الجيادِ النَّاطقةِ أَن تُفْرِدَ لخدَمِها — منَ «الْياهُو» — أكْواخًا على مسافةٍ لا تبعُدُ كثيرًا عن منازلِها، ثم تتركَ سائرَ دوابِّ «الْياهُو» سائِمَةً في الحقولِ، ترْعَى جُذُورَ الأرضِ وحشائشَها، وتتلمَّسُ غِذاءها منَ الجِيَفِ والفأرِ وبَناتِ عِرْسٍ، وَتَزْدَرِدُها في شَرَهٍ وَجَشَعٍ. وَقد مَرَنَتْ بِطَبْعِها عَلَى أَنْ تَحْفِرَ بأظافرِها حُفَرًا عميقةً في سُفُوحِ التِّلالِ وَالهِضابِ، ثم تَرْقُدَ فيها، وتَتَّخِذَ منها أَحْجارًا تَأْوِي إليها. وهي تُدَرِّبُ صِغارَها عَلَى السِّباحَةِ في الماءِ منذُ حَداثَتِها، فتبقَى في قاعِهِ كالضَّفادِعِ مُدَّةً طويلةً، وتظَلُّ باحِثَةً عنِ السَّمَكِ، لتعودَ بِهِ إلى أَجحارِها.

(٣) خَصائِصُ الْجِيادِ

وَقد قضيتُ في تلك البلادِ سَنواتٍ ثَلاثًا كاملةً. وَما أَحسَبُ القارئَ إلَّا مُطالِبي بأنْ أُسْهِبَ القولَ في أَخْلاقِ السَّادةِ الجِيادِ وعاداتِهم التي تَوَفَّرْتُ عَلَى دَرْسِها في أَثْناءِ إقامَتِي؛ فقد أَلِفَ القارئُ من أقاصِيصِ السَّائحِينَ أَنْ يُعْنَوْا بأمثالِ هذه الشُّئُونِ.

على أَنني ذكرتُ الكثيرَ من أَخْلاقِ الجيادِ. وقد رأَيتُها: سَرِيَّةَ النَّفْسِ، كَرِيمَةَ الشَّمائِلِ، مُتَحَلِّيَةً بأكرمِ الفَضائلِ، تَتَّخِذُ منَ العقلِ مُرْشِدًا إلى الخيرِ، وهادِيًا إلى السَّدادِ، ولا طاقَةَ لها بالْجَدَلِ والْمُناقشةِ والثَّرْثَرَةِ. وهي لا تَتَشَكَّكُ في شَيْءٍ، وَلا تُعْنَى بِوُجُوهِ الرَّأْيِ المختلفةِ في المسألةِ الواحدةِ.

ولقد سَخِرَ مِنِّي السيدُ الجوادُ حينَ سمِعني أَتحدثُ عنِ الفلسفةِ الطبيعيّةِ وآراءِ الفلاسفةِ فيها — من قُدَماءَ ومُحْدَثِينَ — وعَجِبَ من عِنايةِ العُقلاءِ بأمثالِ هذه الظُّنُونِ والْأَوْهامِ. فهو — بهذا — يَتَّفِقُ مع فلسفةِ «سُقراطَ»، التي جاءنا بها «أفلاطون»!

وإنِّي لَأُكاشِفُ القارئَ أنني أرَى في هذه المُوافقةِ أعظمَ شَرَفٍ أصابَهُ أميرُ الفلاسفةِ؛ فقد تَمَثَّلَتْ لِي — حينئذٍ — جِنايَةُ هذه المذاهبِ الفلسفيَّةِ على المؤلِّفِين والْقُرَّاءِ.

ومن أخَصِّ خَصائصِ هذه الْجِيادِ: الْأُلْفَةُ، وإكرْامُ الغريبِ.

فَهِيَ تُعامِلُ إخْوانَها منَ الجيادِ الْغُرَباءِ التي في أقْصَى الجزيرةِ — حين تحُلُّ عندَها — مُعامَلَةَ الأخِ أَخاهُ، وتَلْقاها فِي أدبٍ واحْتِشامٍ، وإِنْ كانَتْ تجهلُ كلَّ ما تَواضَعْنا علَيهِ من أساليبِ الْمُجامَلَةِ الزَّائفةِ والتَّمْلِيقِ السَّخِيفِ.

وهي تُعْنَى بتربيةِ صِغارِها عنايةً عاقِلةً رشيدةً، لا يُفسِدُها ما أَلِفْناهُ مِنْ آبائِنا من حُنُوٍّ وتَدْلِيلٍ.

وهذه الجيادُ — على اختلافِ بلادِها — مُتَحابَّةٌ مُتَعاطِفَةٌ، بعيدةٌ عنِ الأهْواءِ والأرْجاسِ، مُتَحَلِّيَةٌ بالوفاءِ والإيناسِ. ولم أَرَ فيها زَوْجَةً تَعُقُّ زَوْجَها، وَلا زَوْجًا يَغْدِرُ بزَوْجَتِه. وليس بينها شِجارٌ ولا نِزاعٌ. وحَياتُها صافِيَةٌ لا كَدرَ فيها، فهِيَ لا تغضَبُ ولا تَهْتاجُ. وهِيَ تُسَوِّي في المعاملةِ بينَ الإناثِ والذكورِ، وتُدَرِّبُ صِغارَها منذُ حَداثتِها علَى العملِ، والرِّياضَةِ، والشَّجاعَةِ، والسِّباقِ من أَعْلَى التِّلالِ إلَى أسْفَلِها، وتُمَرِّنُها على الْجَرْيِ فوقَ الأراضِي الصَّخْرِيَّةِ.

وهي تُدَرِّبُ الْمِهارَ على السِّباحَةِ والْغَوْصِ، وتُقِيمُ لذلك حَفَلاتٍ أَرْبَعًا فِي خِلالِ العامِ، لتُظْهِرَ مَهارَتَها في الْجَرْيِ والقفْزِ وما إلى ذلك من أساليبِ الرياضةِ. ثم تُكافِئُ البارِعَ السَّبَّاقَ بِنَشِيدٍ تُعَدِّدُ فيه مَزاياهُ، وتُثْنِي عليه أَحْسنَ الثَّناءِ.

وتجيءُ الخدمُ بسِرْبٍ من دوابِّ «الْياهُو» يَحملُ طعامَ الجيادِ: من حَشِيشٍ يابِسٍ وشُوفانٍ ولبنٍ، إلى مكانِ الحفلةِ. ثم تَرْجِعُ الدَّوابُّ من حيثُ أتَتْ، حتى لا تُكَدِّرَ صفوَ الاِجتماعِ!

(٤) مَجْمَعُ الجيادِ النَّاطِقَةِ

وفي كلِّ سنواتٍ أَرْبَعٍ تَعقِدُ الجيادُ — في الْخَرِيفِ — مَجمعًا عامًّا يُمثِّلُ فيه الجيادُ جميع الطوائِفِ، فِي سَهْلٍ فسيحٍ يَبعُدُ عن منزلِ السيدِ الجوادِ عشرينَ ميلًا. وَيظَلُّ هذا المجمعُ خمسةَ أيامٍ أو سِتَّةً، وتُعْرَضُ فيه أحْوالُ الأقاليم المختلفةِ وَما أخرجتْه منَ الحاصِلاتِ

من حَشِيشٍ وشُوفانٍ، ويُحصَى فيه عددُ البقرِ و «الْياهُو». فإذا رأَوْا عجزًا أَو نقصًا — وَقَلِيلًا ما يحدُثُ ذلك — اشتركوا في تَلافِي أَسْبابِه.

وَيُعنَى هذا المجمعُ بتوزيع الْأَبناءِ توزيعًا عادِلًا؛ فإذا رُزِقَ أَحدُ الجيادِ وَلَدَيْنِ، ورُزِقَ آخرُ بِنْتَين؛ قسَم المجمعُ بينهما قِسْمَةً عادِلَةً. وَإذا فَقد أَحدُ الآباءِ وَلدَه في حادِثٍ منَ الْأحداثِ الْفُجائِيَّةِ وَبلغتْ أُمُّهُ سِنَّ اليأْسِ، قَرَّرَ لها المجمعُ وَلدًا يحُلُّ مَحَلَّه، تُقدِّمُه إحْدَى الْأُسَرِ التي أَنْجَبَتْ مِنَ الْمِهارِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْجَبَهُ غَيْرُها.

الفصل التاسع

(١) مُناقشةُ الْمَجْمَعِ

عَقَدَ مَجمعُ الْجِيادِ جَلَساتِه الْحافِلَةَ قبلَ أن أُغادِرَ البلادَ بنحوِ ثلاثةِ أشهرٍ. وكانَ السيدُ من أَعضائِهِ: نائبًا عن إِقليمِه، ومُمثِّلًا له فيه.

ودارَ البحثُ في مَسألِةِ المسائلِ التي شَغلتْ بالَ الْجِيادِ الناطقةِ زَمَنًا طويلًا، وهي المسألةُ الوحيدةُ التي تَشَعّبتْ فِيها آراءُ الْجيادِ وانقسمتْ.

وقد قَصَّ عليّ السيدُ — بعدَ عَوْدَتِه — كلَّ ما دارَ من الْحِوارِ.

وكان شُغْلَ الْمجمعِ الشَّاغِلَ أن يَبُتَّ أمْرَ «الْياهُو»، وأن يُصْدِرَ قَرارًا حاسِمًا في هذه المسألِةِ الخطيرةِ التي حارَ فيها الْمُصْلِحُون!

وكان نَصُّ الاِقتراحِ: أن يقرِّرَ الْمجمعُ اسْتِئْصالَ الدَّوابِّ الْآدَمِيَّةِ، وإبادَتَها جَمِيعًا منْ جَزيرَةِ الْجِيادِ!

(٢) أَصْلُ «الْياهُو»

وقدِ انْتَصَرَ أحدُ الأعضاءِ لهذا الاقتراحِ، وأَيَّدَهُ — في حَماسَةٍ — وحَمْحَمَ صاهلًا: «إنَّ هذا الجنسَ الآدَمِيَّ هو أفظعُ الدوابِّ شكلًا، وأَقبحُها صُورَةً، وأَلْأَمُها نَفْسًا، وأَشَدُّها تَشْويهًا، وهو أَقذرُ حيوانٍ رأَيناهُ. ولم نَرَ من بين الدوابِّ كلِّها — عَلَى اختلافِ أَجْناسِها وتَبايُنِ أوْصافِها — دابةً واحدَةً اجتمعتْ فيها كلُّ هذه النقائِصِ والأرْجاسِ. فهذِهِ الدَّوابُّ الآدميةُ — كما تعلمون — مُؤْذِيةٌ، عَصِيَّةٌ، مُتَمَرِّدَةٌ، شديدةُ اللَّجاجِ. وهي تنتهزُ الْفُرَصَ لتحلُبَ

اللبنَ من أَبقارِنا خُلَسًا، ولا تفتأُ تلْتِهمُ الْقِطَطَ، وتَعِيثُ في حُقُولِنا فَسَادًا؛ تَطَأُ الشوفانَ والْخُضْرَةَ بأقدامِها كُلَّما سَنَحَتْ لها فرصةٌ، وتَضْطَرُّنا إلى حِراسةِ الْحُقولِ والْماشِيَةِ — ليلَ نَهارَ — حتى نَأْمَنَ شُرُورَها. وليسَ لِجناياتِ الدوابِّ الآدميةِ الْحَمِقَةِ الرَّعْناءِ حَدٌّ تقِفُ عندَه. وما أَحْسَبُكم نَسِيتُمُ القصةَ القديمةَ، التي سمِعناها من أَسْلافِنا، عن نَشْأَةِ هؤلاءِ الآدمِيِّين: فقد حَدَّثُونا أَنهم لم يُوجَدُوا مُنذُ بَدْءِ الخليقةِ، بَلْ ظَهَرُوا مُنذُ قُرونٍ عدَّةٍ. وَقَد خُلِقَ اثْنانِ هُما جَدَّا هذهِ الْمَخْلوقاتِ، خُلِقا من صَلْصَالٍ — في أَعْلَى الجبلِ — بعد أن أَرْسَلَتْ عليهِ الشَّمْسُ أَشِعَّتَها، وأَنْضَجَتْهُ حرارتُها. أوْ لَعلَّهما خرجَا من قاعٍ مُسْتَنْقَعٍ، أو تكونَّا من طَمْيِ البحرِ. ثم تَوالَدَ هذانِ الآدَمِيَّانِ، وتكاثَرَ نَسْلُهُما، فكانَ شَرَّ نَكْبَةٍ مُنِيَتْ بها بِلادُنا. وقدْ ضَجِرَ أَسْلافُنا بهم، وضاقُوا ذَرْعًا بِأَذاهُمْ وشَرِّهِمْ، فقرَّرُوا إبادَتَهم جميعًا، لم يَسْتَثْنُوا إلَّا بعضَ الأطْفالِ. وآثرَ كلُّ جَوادٍ أنْ يدَّخِرَ صَغِيرَيْنَ، ليتألَّفَهُما — منذُ حداثتِهما — ويَرُوضَهُما على جَرِّ الْمَرْكَباتِ، وحَمْلِ الأثقالِ. وهذه الأُقْصُوصَةُ — فيما أَرَى — لَها نصيبٌ كبيرٌ من الصِّحَّةِ؛ فإنَّ الآدَمِيِّينَ لم يكُونوا — في يومٍ منَ الأيامِ — من أَبناءِ هذهِ البلادِ، بَلْ دُخَلاء. والدَّليلُ على ذلكَ: أنهم مَكْرُوهُونَ من دَوابِّ الأرضِ قاطِبَةً. وما أَجدَرَهم بهذا الْمَقْتِ، لفَسادِ سَرائِرِهم وَلُؤْمِ طِباعِهِمْ! ولوْ كانوا أُصَلاءَ في البلادِ، لَما نَشِبَ هذا النُّفورُ الْمُسْتَحْكِمُ في طَوِيلِ العُصُورِ، ولَخَفَّ شيئًا فشيئًا على مرِّ الزَّمنِ.»

(٣) «الْياهُو» والحميرُ

ثم استأنفَ الْعُضْوُ الْمُحْترمُ صاهِلًا: «ولستُ أَدرِي: أَيُّ فكرَةٍ خاطِئَةٍ أَوْقَعَتْ أَسْلافَنا في هذهِ الوَرْطَةِ؟ وماذا أَصابَ عُقُولَهمْ حين آثرُوا اصْطِناعَ الآدَميِّين، وأَهْملوا اصْطِناعَ الحَميرِ؟ وما بالُهم يستخدِمُون الْأَوَّلينَ ويَنْسَوْنَ الآخَرِينَ؟ إنَّ الْحميرَ من أكرمِ الدوابِّ أَخْلاقًا، وأهدئِها نفْسًا، وأَشَدِّها إيناسًا. وهي سَهْلَةُ القِيادِ، لا تَكِلُّ منَ العملِ، ولا يُكلِّفنا طعامُها شيئًا مذكورًا. وليستْ كريهةَ الرائحةِ كأُولئكَ الآدميِّينَ. وهي قويةُ البأسِ، عظيمةُ الصبرِ، وإن لم يكُنْ لها مِثْلُ نشاطِ الآدميِّينَ وسُرْعَتِهم. وليسَ فيها من عَيْبٍ إلَّا صَوْتُها الْمُنْكَرُ، ونَهِيقُها الْمُفْزِعُ، ولكنهُ — على نُكْرِه وبَشاعَتِه — أَقلُّ إزعاجًا من أصواتِ الآدَمِيِّين وصَيْحاتِهمْ.»

(٤) عُقَلاءُ «الْياهُو»

ثم أَدْلَى كثيرٌ من شُيوخِ الجيادِ — في ساحَةِ المجمع — بآرائِهم في هذه المسألةِ الخطيرةِ، وكانت آراؤهم ناضِجةً، وعباراتُهم فصيحةً.

ثم قامَ صاحبي السيدُ الجوادُ، وأَقَرَّ آراءَ من سَبَقَهُ من شُيُوخِ الْجِيادِ، وتَصَدَّى لتلك الْأُسْطُورَةِ الْمُتَواتِرَةِ التي تُلَخِّصُ أَصْلَ «الْياهُو» ونشأَتَهُ في بلادهم، فحمحَم صاهِلًا: «ما أَحْسَبُني مخدوعًا فيما أَراه في هذهِ الْمَسْأَلَةِ التارِيخِيَّةِ الخطيرَةِ، فإني أَرَى الآدمِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ تُحَدِّثُنا عَنهما الأُقْصُوصَةُ، قد وَفَدَا على أَرْضِنا من بلادٍ بعيدةٍ جدًّا، وراءَ هذا البحرِ السَّحِيقِ. وقد أَنْزَلَهُما رِفاقُهما إلى الأرضِ، ثم تركاهُما؛ فذهَبا إلى الجبالِ والْغاباتِ، وخالَطا الْوُحُوشَ؛ فَتَوَحَّشا. ولم يَلْبَثْ نَسْلُهُما مِنَ «الْياهُو» أَنِ اخْتَلَفَ عن أَجْدادِه الأَوَّلِينَ.»

ورأَى السيدُ الجوادُ أن يُعَزِّزَ كلامَه لِلْأَعْضاءِ الْمُحترمين، فاسْتشهدَ بما عَرَفَهُ منَ الحَقائقِ الَّتِي أَفْضَيْتُ بِها إِلَيْهِ، وكانَ سَوادُ الحاضرينَ قد رَآني من قبلُ، فأَمَّنَ على رَأْيِه.

ثم حدَّثهُم السَّيِّدُ الجوادُ عن الْمُصادفَةِ التي أَتاحَتْ لَهُ مُقابَلَتِي، وكيف رأَى جسمِي مُدَثَّرًا بثِيابٍ مَنْسُوجةٍ منَ الشَّعرِ، أو مصنوعةٍ من جِلْدِ الدَّوابِّ، وكيفَ رآني أتحدَّثُ بلغة بلادي، ثم لا أَعْجِزُ عن درسِ لُغَتِهِمُ الصَّاهِلَةِ، والْحَمْحَمَةِ بها، في سُهولةٍ نادرةٍ.

وقَصَّ عليهم قِصَّةَ وُفُودِي على جزيرتهم، وكيف رَماني رِفاقِي على الشَّاطئِ، وكيفَ تَكشَّفَ له أمري — بعدَ زَمَنٍ — حينَ رأَى جَسَدِي عارِيًا، واقتنعَ بأنني آدَميٌّ حقًّا، وإن كنتُ أبيضَ اللَّوْنِ، قليلَ الشَّعرِ، قصيرَ الْمَخالِبِ.

ثم استأنفَ يُخاطبُ الأعضاءَ صاهلًا: «ولا أَكْتُمُ أن هذا الغريبَ الآدَمِيَّ أرادَ أن يُقْنِعَنِي أَنَّ الآدَمِيِّينَ من أمثالِه — في أكثرِ البلدانِ التي مَرَّ بها — هم سادةُ الدوابِّ كلِّها، وأنهم — وحدَهم — العقلاءُ الرَّاشِدُون، والْمُسَيْطِرُون الحاكِمون، حتى على الجِيادِ، فقد أخبرَني أَنَّ الْجِيادَ — في بلادِهم — مِنَ الأَرِقَّاء!» ثم عَقَّبَ على ذلك صاهلًا: «ولهذا الآدميِّ — على التحقيقِ — جميعُ المظاهرِ الآدميّةِ التي نراها في «ياهو» بلادِنا. ولكنه أكثرُ حضارةً منهم؛ لأن له مُسْكَةً ضَئِيلَةً منَ العقلِ (قليلًا منَ العقل)؛ فَعَقْلُه — على كلِّ حالٍ — دُونَ عقلِنا مَعْشَرَ الجيادِ، بمراحِلَ كثيرةٍ.»

ثم قَصَّ عليهمُ الأُسلوبَ الذي نتَّبِعُه — نحنُ «الْياهُو» — في تَرْوِيضِ الجِيادِ وتذليلِها في بلادِنا كما سمِعه مِنِّي، واقترح عليهم أن يَقْبِسُوا هذا النِّظامَ في بلادِهم، ويُطَبِّقُوه على الآدَمِيِّينَ.

ثم ختم خِطابَه صاهلًا: «وهذا نظامٌ ميسورٌ سهلٌ — كما تَرَوْنَه — ولا عارَ علينا إذا حاكَيْنا هؤلاء الهَمَجَ الْمُتَوَحِّشِينَ في بعضِ ما يعمَلُون؛ فقد علَّمتْنا النَّمْلَةُ كيف نُصبِحُ صُنَّاعًا مُدَبِّرِينَ، كما علَّمنا الشُّحْرُورُ كيف نَبْنِي بُيوتَنا. ولا علينا إذا عامَلْنا صِغارَ الآدَمِيِّينَ عندَنا كما يعامِلُون في بلادِهم أَحْداثَ الجيادِ وصِغارَ الأفْراسِ؛ لنذلِّلَهم لنا — كما ذَلَّلُوها لهم — تَذْلِيلًا. ولَنْ يَصْعُبَ علينا أن نُبِيدَ هذا الجنسَ الخبيثَ شيئًا فشيئًا — متى اتَّبَعْنا هذا النظامَ — دُونَ أَنْ نَحرِمَه الحياةَ صَدْمَةً (دَفْعَةً واحدةً). ولا يَفُوتُني — أيُّها السَّادةُ — أَنْ أُوصِيَكم بالحميرِ خيرًا؛ فهي — إلى مزاياها الكثيرةِ التي تَرْجَحُ بها مزايا «الْياهُو» — قادِرَةٌ علَى الاِضْطِلاعِ بأعمالنا متى بلغتِ الخامسةَ من عمرِها. أما الآدَمِيُّون فلا يَصلُحُون لشيءٍ قبل الثانيةَ عشرةَ.»

(٥) حَضارَةُ الْجِيادِ

هذه خُلاصَةُ ما أَفْضَى بِه ذلك السيدُ إليَّ، مِمَّا دارَ من حِوارٍ بين شُيوخِ الجيادِ ونُوَّابِها. وقد كَتَمَ عَنِّي آراءَهُمْ في أَمْرِ بقائي أو طَرْدِي من بلادِهم، وظَلَلْتُ زمنًا لا أَدْري شيئًا من ذلك حتى فُوجِئتُ به.

وكان هذا الحادثُ مَبْدَأَ شِقْوَتِي وتَعاسَتي، وخاتِمَةَ هَنائي وسعادتي، ومصدرَ المصائب والآلامِ التي حَلَّتْ بي فيما استقبلَني منَ الأيامِ.

ولا يفُوتُني أن أُوجِزَ حضارةَ السادةِ الجيادِ، كما عرفتُها في أثناء إقامَتِي بين ظَهرانَيْهِم، فهم قومٌ لا يُعْنَوْن باللُّغةِ وآدابِها، وهم يجتَزِئون بالنَّقْلِ، وليسُوا في حاجةٍ إلى تَدْوِينِ الحوادثِ التي تقعُ لهم؛ لأن البلادَ في أَمْنٍ من كلِّ مُفاجَأةٍ؛ فقد يَسَّرَ لَهم العقلُ طريقَ السَّدادِ، وهَدَتْهُمُ الفضيلةُ إلى النَّجاحِ والسعادةِ، فأصبح تارِيخُهم مَيْسورًا سهلًا، لا يصعُبُ عليهم أن يحفَظُوه.

وهم لا يَمْرَضُون؛ فلا حاجةً بهم إلى أطباءَ. وقد وُفِّقوا إلى بعض الحشائش والنباتاتِ النافعة التي تَضْمِدُ جراحَهم إذا جُرِحُوا، وتُعالجُ سَنابِكَهم إذا أَصابها سُوءٌ. وهم يَحْسِبون

الزمنَ بعددِ الدَّوْراتِ الشَّمْسِيَّةِ والقَمَرِيَّةِ، فيُؤَرِّخُونَ بها سِنِيهم ولا يعرِفون تَقْسِيمَ الزمنِ إلى أسابيعَ. وهم يَحْذِقُونَ حركاتِ الشمسِ والقمرِ وأَسْبابِ الخُسُوفِ والكُسُوفِ، وهذا هو مبلغُ علمِهم في الفلكِ.

وهم أصدقُ الشعراءِ، وأبرعُهم في الوصفِ والتشبيهِ، ولن يستطيعَ أحدٌ أنْ يُجارِيَهم في ذلك. وأشعارُهم تَفيضُ — في مجموعِها — بالإخلاصِ والوفاءِ، والإشادَةِ بالصداقةِ والإخاءِ، والتَّغنِّي بفضائلِ السبّاقينَ منهم، الذين يفُوزُون في التمريناتِ الرياضِيَّةِ على أقْرانِهم.

أمَّا مساكِنُهم فليس فيها شيءٌ منَ التَّرَفِ، بل هي خَشِنةٌ غيرُ مَصْقُولَةٍ، ولكنها صِحِّيَّةٌ كَفِيلَةٌ بوِقايتِهم من الحرِّ والبَرْدِ على السَّواءِ. وهم يستعملون أرْجُلَهمُ الأماميةَ — كما نستعملُ أيدِيَنا — ويقبِضُون براحاتِها وحَوافِرِها عَلَى كلِّ شيءٍ، في مهارةٍ ورشاقةٍ نادِرَتَيْنِ وقد رأيتُ فَرَسًا شَهْباءَ تُدخِلُ الخيطَ في سَمَّ الْخِياطِ (ثُقْبِ الْإِبْرَةِ) بلا عَناءٍ، وتحلُبُ الأبقارَ، وتَجْتَثُّ الشُّوفانَ منَ الحقولِ، ولا تعجِزُ عن عملٍ يَدَوِيٍّ.

وهم يَتَّخِذُون منَ الحجارةِ الصُّلبة فُئُوسًا، ومَلاطِسَ، ومَطارِقَ، ومِناجِلَ؛ يَجْتَثُّونَ بها الشُّوفانَ منَ الحُقولِ، ويضعونه على مَرْكَباتٍ يجرُّها الآدميون من «الْياهُو»؛ ثم يهرُسُه الخدمُ، فيُخرِجُون منه الْحَبَّ، ويحفَظونه في مخازنِ سادَتِهم.

وللجِيادِ قُدرةٌ عجيبةٌ، ومَهارةٌ نادِرةٌ في صُنْعِ الآنِيَةِ منَ الآجُرِّ والخشبِ. وهم يُعَرِّضُون الأوانِي الفَخَّارِيَّةَ لحرارةِ الشمسِ حتى يَتِمَّ جَفافُها.

وهم — إذا نَجَوْا من أحْداثِ الزمانِ وخُطُوبِه — لا يموتُون إلا بالشيخوخةِ. وثَمَّ يُدفَنُون في مكانٍ قصِيٍّ شديدِ الظُّلْمةِ.

ولا يحزَنُ أصدقاؤُهم وأهلُوهم عليهم — إذا ماتوا — ولا يَجْزَعُونَ، ولا يُبدِي المحتضَرُ أسَفًا ولا جَزَعًا لِمُفارقةِ الدُّنْيا، بل يشعُرُ أنه قدِ انتهى من زِيارَتِها، فيستأذِنُ أُسرتَه وجِيرانَه في الانصرافِ إلى بيتِه!



ولستُ أَنْسَى يومَ دعا السيدُ بعضَ أصدقائِه لمشاركتِه وأسرتِه في اجتماعٍ خطير. فلما دَنَتْ ساعةُ الموْعِدِ، لم يحضُرْ أحدُ المدعوِّينَ. ثم جاءتْ سيدةٌ وولداها بعد قليلٍ، فاعْتذرَتْ للسيدِ بأن زوجَها قدْ عادَ إلى أُمِّهِ الْأُولَى!

وهي — بهذا — تَعنِي أُمَّه الأرضَ، وتُخبِرُ السيدَ أنَّ زوجَها قد مات!

ثم تشاوَرَتْ وخَدَمُها في المكانِ الَّلائِقِ بدَفْنِ زَوْجِها، وكان الاِطْمِئْنانُ يبدُو على سِيماها أكثرَ مما يَبْدُو على وَلَدَيْها. وقد لحِقَتِ السيدةُ بِزَوْجِها بعد أشهرٍ ثلاثةٍ من مَوْتِه تقريبًا.

وتعيشُ الجيادُ — عادةً — حتى تبلُغَ الخامِسَةَ والسبعِينَ، وقلَّما تَصِلُ سِنُّها إلى الثَّمانِينَ. ويَعْتَرِيها شيءٌ منَ الضَّعفِ قُبَيْلِ مَوْتِها بأسابِيعَ قليلةٍ، ولكنها لا تشعرُ بشيءٍ منَ الألمِ.

فإذا ابتدأتْ هذه الفترةُ، تَوافَدَ على بيتِها الأصدقاءُ والجيرانُ. حتى إذا لم يبْقَ على وَفاتِها إلا عشَرةُ أيامٍ — وقلَّما تُخطِئُ الجيادُ بغَرِيزَتِها تقديرَ هذه الْمُدَّةِ — ذهب الجوادُ الْمُشْرِفُ علَى التَّلَفِ إلى أصحابِه وجيرانِه، يُحَيِّيهم ويودِّعُهم، ويردُّ لَهُمْ زيارَتَهم. وهو يذهبُ إليهم مَحْمُولًا على مَرْكَبَةٍ يَجرُّها «الْياهُو»، إذا كان الجوادُ المحتضَرُ طاعِنًا في السِّنِّ، أو كانت شُقَّةُ السَّفَرِ بعيدةً.

فإذا أتم زيارتَه وَدَّعَهُ أصحابُه — بعد أنْ يستأذِنَ منهم في الاِنصرافِ — وكأنما يودِّعون مُسافرًا يعتزمُ الرَّحِيلَ إلى بلدٍ ناءٍ، ليقضِيَ فيه أيامًا ثم يعودَ.

وليس في لغة الجيادِ ألفاظٌ تدلُّ على الشرِّ أو السُّوءِ، عَدَا اسْتعاراتٍ قليلةً يستَعِيرُونها من صِفاتِ «الْياهُو» وهيئَتِه!

الفصل العاشر

(١) مَنْزِلُ «جَلِفَرَ»

كنتُ — في أثناء إقامَتي في هذه البلاد — قد نَظَّمْتُ أُمُورِي جُهْدَ طاقتي، واسْتَقْرَرْتُ في البيتِ الذي أمرَ ببنائِه السيدُ الجوادُ ليكون مَأْوَاي، وكان لا يبعُدُ عن دارِه أكثرَ من سِتِّ خُطُواتٍ، وقد بَنْوه على طِرازِ بُيوتِهم؛ فَغَطَّيْتُ أرْضَهُ وجُدْرانَه بالصَّلْصَالِ وَجَدائلَ منَ الشَّعرِ.

وقد نَسَجْتُ منَ الْكِتَّان — الذي يَنْبُتُ في حقولِهم — ثِيابًا وغرائِرَ (زَكائِبَ) مَلَأْتُها بريشِ الطيورِ التي اقْتَنَصْتُها. وكنتُ قد صنعتُ شِباكًا من شَعرِ «الْياهُو» لصيدِ الطيورِ، فنجحتُ في ذلك نَجاحًا عظيمًا. وكان لحمُها سائغًا لذيذًا، فأَقبلتُ عليه في شَهِيَّةٍ نادرةٍ.

واسْتَعَنْتُ بمُدْيَتِي على صنعِ مائدةٍ وكُرْسِيٍّ. وقد ساعَدَنِي الجوادُ الأحمرُ فيهما أَعظمَ مُساعدةٍ.

وصنعتُ لنفسي ثَوْبًا جديدًا من جِلْدِ الأرانبِ وغيرِها من الحيوانِ — بعد أن خَلَقَ ثَوبي — كما صَنَعتُ منه جَوارِبَ نظيفةً جميلةَ الشكلِ. وصنعتُ شِسْعًا من قِطَعٍ صغيرة منَ الخَشبِ شَدَدْتُها إلى نَعْلِي. ولَمَّا بَلِيَ وجهُ الحذاءِ صنعتُ غيرَهُ من جلدِ «الْياهُو»، بعد أنْ جَفَّفَتْهُ حرارةُ الشمسِ.

وكنتُ أشْتارُ الشَّهْدَ — أحيانًا — من جُذُوعِ الأشجارِ، وأمْزُجُه بالْخُبْزِ الذي صنعتُه منَ الشُّوفان.

وقد آمنتُ — بعد هذه التَّجْرِبَةِ — بِصِدْقِ المَثَلِ القائلِ: «إنَّ القَناعةَ والرِّضَى بالقليل من خَصائصِ الطبيعةِ.»

كما آمَنْتُ بِصِدْقِ الْمَثَلِ القائلِ: «الحاجةُ تَفتُقُ الحيلةَ، والضرورةُ أُمُّ الاِختراعِ.»

(٢) سَعادَةُ القانِعين

وشعَرْتُ بالسعادةِ تكتنفُني، وتغْمُرُ نفسي إيناسًا وبِشْرًا، وتُكسبُ جِسْمِي صِحَّةً وقُوَّةً، وفكري راحةً وهُدُوءًا؛ فقد وجدتُني في مَأْمَنٍ من خِيانَةِ الأَعْدَاءِ، وتنكُّرِ الأصدقاءِ، ودسائسِ الْمُنافِسِينَ الظَّاهِرَةِ والْمَسْتُورَةِ. وأصبحتُ في غيرِ حاجةٍ إلى تَمْلِيقِ عظيمٍ رغبةً في إرْضائه، أو مُحاسَنَةِ ذي جاهٍ طمعًا في جاهِهِ، أو التَّظَرُّفِ مع كبيرٍ لِيَصْطَفِيَنِي له نديمًا وسميرًا.

ورأَيْتُني آمِنًا من عُدْوَانِ المعْتَدِين، وغِشّ الْمُزَوِّرين، وجَوْرِ الظَّالمين؛ فلم أَحْتَجْ إلى مُفاوَضاتِهم وبَذْلِ كلِّ ما أَملِكُ من مالٍ ونَشَبٍ في سَبِيلِ الدِّفاعِ عَنْ حَقِّي. وارْتَحْتُ منَ الْعُيونِ والأرْصادِ والجواسيسِ الذين يُحْصُونَ عليّ أَنفاسي ويأْتَمِرُون بِي، طمعًا في مكافأة الحكومة ورغبةً في حُسْنِ جَزائِها!

وسَعِدْتُ بعيشةٍ راضيَةٍ، لا يُعَكِّرُ صَفْوَها تَدْجِيلُ الْهارِجِين، وتَخْرِيفُ السَّاسَةِ، وثَرْثَرَةُ الْمُتَفاصِحِين، وتَعَصُّبُ الأدْعِياءِ والجاهِلِين. وأصبحتُ في أَمْنٍ من فَتْكِ اللُّصوصِ والْجُناةِ والسَّفَّاحِينَ، وإسفافِ المتفَلْسِفِين في فَنِّ الموسِيقَى وغيرِه منَ الفُنون الرفيعةِ!

يا لَها من حياةٍ سعيدةٍ لا يُنَغِّصُها هِياجُ الثائِرين، وتَخالُفُ الأحزاب، ومُرَوِّجُو الرَّذِيلَةِ، ولا ترى فيها أثرًا للسُّجُونِ وآلاتِ التَّقْتِيلِ والتَّمْزِيقِ؛ من مَشانِقِ وفُئُوسٍ وخَوازِيقَ، ولا تعثُرُ على مُحْتالٍ ولا أَنانِيٍّ وَلا أَفَّاكٍ ولا عِرْبيدٍ ولا سِكِّيرٍ؛ ولا تُفْسِدُها الأمراضُ الفتّاكةُ الخبيثةُ التي تفتِكُ بالأهلِينَ في البلاد المتحضِّرَة!

(٣) صُحْبَةُ الجيادِ

وهكذا سَحَرتْنِي صُحْبَةُ الجيادِ، وملأَتْ نفسي طُمأْنينةً وأُنْسًا. ولقد طالما شَرُفْتُ بالتّحَدُّثِ إليهم، وكانوا يُكثِرون منَ التَّردُّدِ على دار السَّيِّدِ، فلا يَضَنُّ عليَّ بالبَقاءِ في مَجْلِسِهم، لِأُفِيدَ من حكْمتهم، وأَنْهَلَ من حديثِهم. وكانوا يَتَنَزَّلُونَ بِسُؤَالي، ثم يُصِيخُون إلى جوابي، كَرَمًا مِنْهُمْ وتَفَضُّلًا.

وطالما صحِبتُ السيدَ الجوادَ في زياراتِهِ لِأَصْفِيائِه وخُلَصائهِ منْ كِرامِ الجيادِ. وكنتُ دائمَ الصَّمْتِ، إلَّا إذا سُئِلْتُ واضْطُرِرْتُ إلى الإجابةِ.

وكنتُ شديدَ الأسفِ على الزمنِ الذي أُضُيعُه في الكلام. ولم أَكُنْ أتحدَّثُ إليهم إلَّا مُضْطَرًّا؛ لأنّني إلى الإفادةِ من حكمتهم وعلمِهم أَحْوَجُ مني إلى الكلامِ معهم.

وكنتُ شديدَ الإعجابِ بأُسْلُوبِهم في الحديثِ؛ لأنهم يَجْتَزِئُون بالألْفاظِ القَلِيلةِ والعبارةِ الموجَزةِ الحافلةِ بالمعاني الساميَةِ النبيلة، عن كلِّ شَرْح وإسهابٍ. وكانوا — في أَحاديثهم — مثالًا للأدبِ الوافرِ، وإن كانوا بَعيدِين عن المُجاملةِ الفارِغَةِ وَالتَّمليقِ السَّخيفِ.

وما كان أحدُهم لِيَبْدَأَ بالكلامِ إلَّا إذا أَنِسَ ارتياحًا لذلك ووجد في نفسِه ما يستحقُّ الإفضاءَ به. ولم أَرَ وَاحدًا منهم يقطعُ على الآخَرِ حديثَه، أو يَرْفَعُ صَوْتَهُ، أو يَحْتَدُّ، أو يَصْخَبُ، كما نفعلُ في بلادِنا. وعندَهم مَثَلٌ حكيمٌ يقولُ: «يحسُنُ أَنْ يَسُودَ الصَّمْتُ بينَ الجماعةِ بَيْنَ حينٍ وَآخرَ.»

وما أَصْدقَ هذا المثلَ وأَبعدَ حكمتَهُ؛ فإِنَّ الْفَتَراتِ التي يَسُودُ فيها الصَّمْتُ بين المتَحَدِّثينَ تُرِيحُ الذِّهْنَ وتَمْلَؤُهُ بالآراءِ الناضِجَةِ والأفكارِ الجديدةِ، لِيَسْتَأْنِفَ الحدِيثَ في قُوَّةٍ وبَصِيرَةٍ وتَمْحِيصٍ.

وأكثرُ أحادِيثِهِمُ العامَّةِ تدُورُ على الصَّداقةِ، والوفاءِ، وحُسْنِ الرِّعايةِ، والنِّظامِ، والاقتصادِ، والطبيعةِ، والفضيلةِ، وَالتقاليدِ. وربُّما طَرَقُوا فُنونًا مختلفةً من الشِّعْرِ.

وكنتُ — ولا فَخْرَ — أُلْهِمُهم أحيانًا أَحاديثَ طريفةً؛ لأنَّ حُضُوري كان يُتيحُ للسيدِ الفرصةَ للتحَدُّثِ عَنِّي وذِكْرِ تاريخي وتاريخ ميلادِي.

وكان يَحْلُو للجياد أن تتحَدَّثَ عن النَّوْع الإنسانيِّ أحاديثَ لا تُرْضِينا، فلا داعِيَ لذِكْرِها للقارئ.

وكان السيدُ الجوادُ — فيما يَبْدُو لي — قد عَرَفَ بذكائه من نقائِصنا وَجُنُونِنا وَمُخْزِياتِنا ما لمْ أَعْرِفْه. وَقد كَشَفَ الأَسْتارَ عن كثيرٍ من أَسرارِ انْحِطاطِنا وَتَدَهْوُرِنا التي لم تكُنْ لِتَخْطُرَ لي على بالٍ.

وكانتِ الأسبابُ وَالْمُقَدِّماتُ — التي يَبْنِي عليها أَحكامَهُ — مُحْتَمَلَةً معقولةً، لا تُنافِي الصَّحِيحَ، وَلا تَصْدُمُ الْحَقِيقَةَ.

(٤) حِكْمَةُ الجيادِ

وإنِّي لَأُقرِّرُ معترِفًا أَن ما ظفِرتُ به من حكمةٍ قليلةٍ، أو تَبَصُّرٍ ضَئيلٍ، إنما يعودُ فضلُه إلى الدروسِ الحكيمةِ التي تَلَقَّيْتُها في بَيْتِ السيدِ الجوادِ: من حديثِه وحِوارِ أصدقائِه الذِين سُعِدْتُ بصُحْبتِهم ونَعِمْتُ بِرفقتِهم وكنتُ أَشْعُرُ بزَهْوٍ كلما اسْتَمَعتُ إليهم. ولستُ أذكرُ أنني شَعَرْتُ بمثلِ هذا الفخرِ في أَسْمَى الجماعاتِ الْمُتَحَضِّرَةِ، وأَرْقَى البِيئاتِ العلميَّةِ السامِيَةِ.

ولقد أُعجِبتُ الإعجابَ كلَّه بِقُوَّةِ السَّادةِ الجيادِ، وجَمالِهم ونشاطِهم وما اشتملَتْ عليه نُفوسُهم منَ الفضائلِ النادِرَةِ، والتّعاطُفِ العجيبِ، والأدبِ الْمَوْفُورِ، والأخْلاقِ الكامِلَةِ. ولنْ أَنْسَى لهم — طولَ حياتي — ما خَصُّونِي به من رِعايَةٍ وعطفٍ؛ إذْ مَيَّزُونِي عنْ جميعِ أبناءِ جنْسِي منَ الآدَمِيِّينَ الذينَ يعيشون بَيْنَ ظَهْرانَيْهم.

(٥) كَراهِيَةُ النَّاسِ

وكان إعجابي بِالجيادِ لا يَعْدِلُه إلّا كراهِيَتي ومَقْتِي للآدميِّينَ، بعد أن خَبَرْتُ فَضائِلَ الْأَوَّلِينَ ونقائصَ الْآخَرِين!

وأصبحتُ كلما فكّرتُ في أُسْرَتي وخُلَصائي وأبناءِ وطني خاصّةً، والْجِنْسِ الْآدَمِيِّ عامَّةً، شَعرتُ أنهم جميعًا لا يختلفون عن دَوابِّ «الْياهُو» التي تَقْطُنُ في هذه الجزيرةِ، وإنْ كانوا أَكثرَ مِنَ «الْياهُو» حضارةً، وأوفرَ عَقْلًا. ولكنَّ قَوْمَنا — لِسُوءِ حظِّهم — قد وقَفوا مزاياهم ومواهِبَهم العقليةَ على مُضاعفةِ شُرورِهم ونقائِصهم، وتَنْغِيصِ حياتِهم، وتَكْدِيرِ صَفْوِهم.

وكنتُ إذا لَمَحْتُ صورةَ وجهي في صَفْحَةِ بُحَيْرَةٍ أو غدِيرٍ هالَني بَشاعَةُ ما أَرَى، ولم أُطِقْ رؤيةَ الصُّورةِ الكريهةِ التي تُمثِّلُ لي منظرَ «الْياهُو» القبيح.

وأصبحتُ أشعُرُ بسَعادةٍ نادِرَةٍ كُلَّما نظرتُ إلى الجيادِ، وأُحِسُّ لهم إجلالًا وإكبارًا. وقد هَيْمَنَ سُلْطانُهم على نفسِي، فَرُحْتُ أُحاكِيهم في مِشْيَتِهم وحَرَكاتِهم؛ حتى وَصَفَنِي بعضُ أصدقائي بأنني: مُحاكِي الجِيادِ. وكان هذا الوصفُ أبلغَ تكريمٍ ظفِرتُ به في حياتي، وهو عندي شَرَفٌ لا يَعْدِلُه شَرَفٌ. ولستُ أَخجَلُ حين أُقرِّرُ أنني ظَلَلْتُ — طُولَ

عمري — أوثِرُ اللغةَ الصاهلةَ على لُغاتِ العالَمِ كُلِّها، غَيْرَ مُبَالٍ بِسُخريةِ الساخِرينَ وتَنادُرِ الهازِئينَ.

(٦) فاتِحَةُ الشَّقاءِ

وبَيْنا أنا غارِقٌ في أحلامِ السَّعادةِ والأملِ بدَوامِ هذا النَّعيمِ، إذْ أرْسَلَ إليَّ السيدُ الجوادُ يستدْعِيني في صباحِ يومٍ باكرٍ، على خِلافِ عادَتِه. وَما إنْ رَأَيْتُهُ حتى لَمَحْتُ على سِيماه شيئًا من أماراتِ الهمِّ والقلقِ. وكأنما كانَ مُتَرَدِّدًا في الإِفْضاءِ إليّ بأمرٍ خطيرٍ، فَهُوَ لا يَدْرِي كيف يبدأُ بالكلامِ!

وَأطْرَقَ زَمَنًا قليلًا، ثم ابْتَدَرنِي صاهلًا: «لستُ أَدرِي: أيُّ أثرٍ سيتركُه كلامِي في نفسِك؟ ولكنني مضطرٌّ إلى مُكاشَفَتِك بِجَلِيَّةِ الأمرِ. لقد أخبرتُك — من قبلُ — أن مَجْمَعَ الجيادِ قد تحدّث في أمرِك. والآن أُخبِرُك أن أكثرَ الشُّيوخِ والنُّوَّابِ قد أَخَذُوا عليّ عِنايَتِي بك وتَحَدُّثِي إليك وارتْياحي إلى مُصاحَبَتِك، ورأَوْا أن ذلك السُّلُوكَ يُنافِي الطبيعَةَ الْفَرَسِيَّةَ والعقلَ الْجَوادِيَّ. فلم يَسْبِقْ لِأَحَدٍ مِنَ الْجِيادِ أَنْ صَحِبَ أَحَدًا منَ الآدميِّينَ. وقد نَصَحُونِي أَنْ أَخْتارَ بينَ أمريْنِ: إِمَّا أَنْ أُنْزِلَك منزلَ الآدميِّينَ الذين يعيشون في بلادِنا وأَسْلُكَكَ في عِدادِهم وأعهدَ إليك بمثلِ أعمالِهم، وإِمَّا أَنْ تَعُودَ إلى بِلادِك التي جِئْتَ منها. أَمَّا أَوَّلُ الأمرَيْن فلا سبيلَ إليه. وَقد رَفَضَه كلُّ مَنْ رآك من أَصْدِقائِي الجيادِ، وقالوا: إنَّ شُعاعَ العقلِ الذي مَيَّزَكَ عن سائرِ الآدميِّينَ، إذا أُضِيفَ إلى طبيعتِهمُ الشِّرِّيرةِ، عاد على بِلادِنا بَالنتائِجِ الوَبِيلَةِ.»

ثم استأنف السيدُ صاهلًا: «ولا يزالُ خُلَصائِي منَ الجيادِ يُلِحُّون عليّ — في كلِّ يومٍ — أنْ آخُذَ بِرَأْيِ المجمَعِ، وليس في وُسْعِي أنْ أُخالِفَ ما أَقَرُّوهُ. ولستُ أَشُكُّ في أنك عاجزٌ عنِ الرُّجُوعِ إلى بَلَدِك سِباحَةً — لِطُولِ المسافةِ — فلا عَلَيْكَ أن تُنْشِئَ نَوْعًا منَ المَرْكباتِ التي وَصَفْتَها لِي من قبلُ، لتجتازَ بها البحرَ. وَسيُعاوِنُك خَدَمِي وخدَمُ جِيراني في إِنْجازِها.»

ثم حَمْحَمَ صاهِلًا: «ولو تُرِكَ أمرُك إليّ لآثَرْتُ بَقَاءَك عِنْدِي طُولَ الحياةِ؛ لأنني رأيتُ فيك مَخايِلَ منَ النَّجابَةِ، وقد وُفِّقْتُ إلى إِصْلاحِ كثيرٍ من عُيُوبِك ونَقائِصِك وعاداتِك

السَّيِّئَةِ، بَعْدَ أَنْ عاوَنْتَنِي في ذلك وَبذَلْتَ قُصارَى جُهْدِك — عَلَى قَدْرِ ما تَسْمَحُ به طَبِيعَتُك الخائِرَةُ — في تَقْوِيمِ نَفْسِك وانْتِهاجِ خُطَّتِنا مَعْشَرَ الجِيادِ.»

ولا يَفُوتُني أَنْ أُنَبِّهَ الْقارِئَ إِلَى أَنَّ قَرارَ هذا المجمعِ يُسَمَّى بتلك اللغةِ الصَّاهِلَةِ: «تَرْغِيبًا». وإِنما سَمَّوْهُ كذلك، لأنهم لا يستطيعون أَنْ يُدْرِكوا أَنَّ مخلوقًا عاقِلًا يُرغَمُ — في يومٍ منَ الْأَيَامِ — على أداءِ شيءٍ بِعَيْنِه فهُمْ يَكْتَفُونَ بالنَّصِيحَةِ وحدَها، ولنْ يَعْصِيَ النُّصْحَ عاقِلٌ جديرٌ بهذا الوصفِ.

(٧) وَقْعُ الْخَبَرِ

وقد وَقَعَ في نَفْسِي هذا الخبرُ وَقْعَ الصَّاعِقَةِ. وخارَتْ قُوايَ، وَتَمَلكَنِي اليأسُ؛ فأُغْمِيَ عليَّ من شِدَّةِ الأَلمِ، ووقعتُ على الْأَرض تحتَ أَقْدامِ السَّيِّدِ، وظَلَلْتُ فِي غَشْيَتِي ساعَةً منَ الزَّمَنِ.

وقد حَسِبَ السيدُ الجوادُ أَنَّنِي فارَقْتُ الحياةَ؛ لِأَنه لم يَأْلَفْ مثلَ هذا الخَوَرِ (الضَّعْفِ) الذي خُصِصْنا به من بينِ الحيوانِ.

ثم قلتُ له في صَهِيلٍ خافِتٍ: «إِنني أُوثِرُ الموتَ على تَرْكِ هذه البلادِ السعيدةِ. ولَيْتَ المجمعَ قد خَفَّفَ من حُكْمِه عليّ؛ فليس في وُسْعِي أَنْ أَقطعَ هذه المسافةَ الهائلةَ سِباحَةً. ورُبَّما كانَتْ أَقربُ أَرضٍ خَلْفَ هذا الخِضَمِّ الواسِع على بُعْدِ مائةِ مِيلٍ. وليس في قُدْرَتِي أَن أَسبحَ أَكثرَ من مِيلٍ واحدٍ، وليس لديّ شيءٌ منَ الْمُعَدّاتِ التي تُمْكِنُني من بِناءِ زَوْرَقٍ.على أنني مُحاوِلٌ إمكاني، وباذِلٌ جهدِي، لِإطاعةِ أمرِه، وإِن كنتُ منَ النَّجاحِ لَعَلَى يَأْسٍ كبيرٍ.»

ثم استأنفتُ صاهلًا: «ولقد عَدَدْتُ نفْسِي — منذُ الْيومِ — مَخْلُوقًا تَعِسًا مَقْضِيًّا عليه بالهلاكِ. علَى أَنَّ الْموتَ هو أيسرُ ما أُلاقِيهِ من ضُروبِ الشَّقاءِ؛ فإِنني إذا ظَفِرْتُ بالْمُحالِ، وعَبَرْتُ الْبحارَ الشاسِعَةَ، وبلغتُ بلادي سالمًا — وهو أمرٌ لا سبيلَ إِلَى إِدْراكِه — فلن أستطيعَ الْبقاءَ بينَ دَوابِّ «الْياهُو» في بلادي، بعد أن أَلِفتُ الْحياةَ الْجَوادِيَّة السعيدةَ الْخالِصَةَ من شَوائِبِ الأكْدارِ والأرْجاسِ. ولن أجدَ الْمثلَ الْفَرَسِيَّ الصالحَ الذي يَهدِيني سَواءَ السبيلِ في وطني، وَلَنْ أَلبثَ — بعدَ قليلٍ — أَنْ أَرْتَكِسَ في حَمْأَةِ الرذيلةِ والْأَدناسِ. وإِنِّي لَعَلَى ثِقَةٍ من رَجاحِة الأسبابِ التي بَنَى عليها السادةُ الْجيادُ قَرارَهم. وليس في

قُدْرَةِ «ياهو» حقيرٍ — مِثْلِي — أَنْ يرَى رأيًا أَفْضَلَ مما يراه أُولئِكِ السَّادةُ؛ فلا مَعْدَى لِي عنِ الطَّاعةِ والإِذْعانِ. بَيْدَ أنني أَلْتمِسُ منكم أَن تَفْسَحُوا الأَمَدَ، وتتركوا لي من الوقتِ ما يسمحُ بِإِنْجازِ هذا الْمهمِّ الشَّاقِّ.»

ثم استأنفتُ صاهِلًا: «وَإِنِّي باذِلٌ قُصارَى جُهدي في الْمحافظةِ علَى سَلامَتِي؛ حتَّى إذا قُدِّرَ لي أَنْ أَعودَ إِلى وَطَنِي — وما إِخالُ ذلك مُمْكِنًا — وَقَفْتُ حياتِي وَوَقْتِي وجُهْدِي على إذاعِة فضائِلكم ومزاياكم الباهرةِ، بين دَوابِّ الآدَميِّين؛ لَعلها تَقْبِسُ شيئًا مما خُصِصْتُم به منَ الرُّقيِّ والْفَضْلِ.»

(٨) بِناءُ الزَّوْرَقِ

وَتَلَطَّفَ بِيَ السيدُ الجوادُ، فَأَذِنَ لِي فِي البقاءِ شَهْرَيْنِ آخرَيْنِ، ثم عَهِدَ إلى صَدِيقِي الجوادِ الأحمرِ أن يُطِيعَني في كلِّ ما أطلُبه منه.

وَقَدْ قلتُ للسيدِ الجوادِ: «إِن هذا الصديقَ وحدَه يكفيني في إِنْجَازِ ما أُريدُ.»

وكان أولَ ما بدأتُ به: أنني ذهبتُ مع الْجَوادِ إلى حيثُ أَلْقانِي الْمَلَّاحُونَ الذينَ تَمَرَّدُوا عليّ. ثم صَعِدْتُ إلى مُرْتفَعٍ من الأرضِ، وأَجَلْتُ بَصَرِي في أَرْجاءِ البحرِ؛ فَخُيِّلَ إِليَّ أنني أَرَى — صَوْبَ الشَّمالِ — جزيرَةً صغيرةً. فأخرجْتُ الْمِنظارَ المقرِّبَ من جَيْبي فرأَيتُها — في وُضُوحٍ وجَلاءٍ — على بُعْدِ خمسةِ أَميالٍ تقريبًا. وقد أَيْقَنَ صديقي الجوادُ الأحمرُ أنها سَحابةٌ؛ لأنه كانَ على ثِقَةٍ منْ أَنَّ الدُّنيا كلَّها ليسَ فيها بلادٌ غَيْرُ بِلادِه، ولم يكُنْ يستطيعُ أَنْ يَتَبَيَّنَها ببصرِه، وهِيَ على هذا البُعْدِ.

أَمَّا أنا فقد اعْتزَمْتُ أَنْ أَتَّخِذَ من هذه الجزيرةِ أولَ الْمَطارِحِ التي كُتِبَ عليّ أن أُنْفَى إليها، ثم أتركَ لِلأَقْدارِ والْحُظُوظِ أَنْ تُقَرِّرَ ما تَشاءُ.

ثم عُدْتُ إلى مَنْزِلِي، وتحادثتُ مع صديقي الجوادِ الأحمرِ، حتى قَرَّ رَأْيُنا على الذَّهابِ إلى غابَةٍ قريبةٍ؛ فقطعْنا من أشجارِ الْبلُّوطِ كثيرًا منَ الأَغصانِ.

ولَنْ أُضْجِرَ القارِئَ بتَفْصيلِ ما صنعتُ. حَسْبي أن أقولَ: إنني استطعتُ — بمُعاوَنة هذا الجوادِ — أَنْ أُتِمَّ صُنْعَ الزَّوْرَقِ بعدَ أسابيعَ سِتَّةٍ، ثمَّ غطَّيْتُه بجلدِ «الْياهُو»، وصنعْتُ له شِراعًا منهُ، وجعلتُ له أَرْبَعَةَ مَجادِيفَ، ووضعْت فيه منَ الزَّادِ ما يَكْفِيني زمنًا طويلًا.

وكان زادِي مُؤلَّفًا من لَحْمِ الأَرانبِ والطيورِ، بعدَ أن بذلْتُ جُهدي في تَقْدِيدِه حتى لا يتعرّضَ للتَّلَفِ، وملأتُ إناءَيْنِ ماءً ولبنًا.

ثم أجريتُ الزَّوْرقَ في مُستَنْقَعٍ كبيرٍ، بعدَ أنْ سَدَدْتُ ثُقُوبَهُ بِشَحْمِ «الْياهُو»، وَقَد رَأيتُه صالِحًا لما أَعددتُهُ له، فطلبتُ إِليهم أن ينقلوهُ إلى شاطِئِ البحر، فوضعوهُ على مَرْكَبَةٍ كبيرَةٍ تجُرُّها دَوَابُّ «الْياهُو» إلى الشاطئِ، وكان الجوادُ الأحمرُ يَرْقُبُها حتى وصلتُ إليه.

(٩) ساعَة الوَداعِ

وهكذا أَعْدَدْتُ مُعَدَّاتي كلَّها، ولم يَبْقَ عليَّ إلَّا الرّحِيلُ. فاسْتأذنتُ منَ السّيد وزوجتِه وأهلِه في السَّفرِ، وعَيْناي مُخْضَلَّتانِ بالدُّمُوعِ، وقَلْبي يكادُ ينْفَطِرُ منَ الْأَسَى والْحُزْنِ. وذهب السيدُ وأَصْفِياؤُهُ ليَروْا هذا الزورقَ العجيبَ. وقد تَفَضَّلَ السيدُ الجواد فقبِلَ رجائي في أَنْ أَلْثَمَ سُنْبُكَهُ، وشرَّفَني بهذه الأُمْنِيَّةِ العزيزةِ التي لم يظفَر بها آدميٌّ قَبْلِي. ولن أَنْسَى — ما حَيِيتُ — هذا الشرفَ العظيمَ الذي خَصَّنِي به السيدُ الكريمُ!

وبَقِيتُ في زَوْرَقِي ساعةً حتى انْحَسَرَ الْمَدُّ فأَقْلَعَ الزَّوْرَقُ.

ورأَيتُ الرِّياحَ مُوَاتِيَةً تهُبُّ صَوْبَ الجزيرةِ — لحسنِ الحظِّ — فحَيَّيْتُ السَّادةَ الجيادَ، وما زِلْتُ أُحَيِّيهِم حَتى غِبْتُ عن أَبصارِهم.

الفصل الحادي عشر

(١) بَدْءُ الرِّحْلَةِ



بَدَأَتْ هذه الرِّحْلَةُ العسيرةُ المُضنِيَةُ في الساعةِ التاسعةِ من صباحِ اليومِ الخامسَ عشَرَ من فبراير/شباط عام ١٧١٥م. وكان الجوُّ صَحْوًا والريحُ طَيِّبَةً. ولكنني — على ذلك — لَجَأْتُ إلى مِجْدافَيَّ، حتى إذا خَشِيتُ الإعْياءَ والتَّعَبَ عَمَدْتُ إلى الشِّراعِ، وقد ساعدَني المَدُّ على تحقيقِ غايَتي.

ولَنْ أَنسَى وَداعَ السيدِ ورِفاقِه، وقد وقَفوا على شاطئِ البحرِ يَرْقُبُونَني حتى غِبْتُ عنْ أَنْظارِهم. ولا يزالُ صَوْتُ صاحِبي الجوادِ الأحمر يَرِنُّ في أُذُني، وهو يُحَمحِمُ صاهلًا: «احتَرِسْ أَيها «الْياهُو» الظريفُ. تَوَقَّ الأَخطارَ في ثباتٍ وَيقَظةٍ!»

وقد ردَّدَ هذه الجملةَ صاهلًا مَرَّاتٍ عِدَّةً حتى غابَ عن نظرِي.

وسار الزورقُ في عُرْضِ البحر سَيْرًا حَثِيثًا. وكان كلُّ همِّي أن أَرْسُوَ على جزيرةٍ قَفْراءَ، أعيشُ فيها عَيْشَ الكَفافِ، في عُزْلةٍ عنِ الناسِ، ناجيًا من شُرورِهم. وهي حياةٌ طالما تاقَتْ نَفْسِي إليها، وآثرتُها على أكبرِ مَنْصِبٍ في أعظمِ دَوْلَةٍ.

وإنما أُوثِرُ العُزلةَ لأنها تُمْكِنُني مِنْ إِنْعامِ الْفِكْرِ وإطالةِ الرَّوِيَّةِ، وتُبعِدُني عن نقائصِ الآدميِّينَ، وتُتِيحُ لي فُرصةَ التأملِ في فَضائلِ الجيادِ الناطقةِ، والتَّحَلِّي بأَخْلاقِها العاليةِ.

(٢) في جَزِيرَةِ الْهَمَجِ

لقد عرَفَ القارئُ — مما أسلفتُه — أنَّ مَلَّاحِي سفينتي الذينَ ائتَمرُوا بي وثارُوا عليَّ، قدِ اعْتقَلوني في غُرْفَتِي، وأَوْصَدُوا بابَها دُوني، وكَتموا عنِّي خُطَّتَهم في السَّيْرِ أسابيعَ عِدَّةً، ثم أنزلوني أرضًا لا أَعلمُ لها اسمًا. وأَقْسَمَ الملَّاحون الذينَ صَحِبوني إلى تلك الأرْضِ: إنهم لا يعرِفون في أيِّ ناحيةٍ منَ العالَمِ حَلَلْنا!

وما أَدرِي: أَصَدقوا في قَسَمِهم أم كانوا منَ الكاذِبين؟

على أنني ذكرتُ أَنني سمعتُ — ذاتَ مرةٍ — جُمهورَ الملَّاحِينَ يتهامَسُون — بالْقربِ من غرفتي — بأنهم ذاهبون إلى «مَدَغَشْقَرَ». فاسْتخلَصْتُ من هذا أننا على مَسافةِ عَشْرِ دَرَجاتٍ جَنْوبَ رَأْسِ الرَّجاءِ الصَّالحِ تقريبًا، أي في الدرجةِ الخامسةِ والأربَعين من خُطوط الْعَرضِ الجنوبيةِ.

فيَمَّمْتُ صَوْبَ الشرقِ؛ لَعَلِّي أرْسُو في الجنوبِ الشرقيِّ من «هولندا الجديدة»، حيثُ أَنْحَدِرُ منها غَرْبًا إلى إِحدَى الجزائرِ الصغيرةِ المُجاوِرةِ لَها.

وكانت الريحُ تَهُبُّ صَوْبَ الغربِ. فلما بلغَتِ الساعةُ السادسةَ مَساءً، كانتِ المسافةُ التي قطعتُها نحو ثمانيةَ عشرَ مِيلًا صَوْبَ الشرقِ، فرأَيتُ جزيرةً صَغِيرَةً على بُعْدِ مِيلٍ ونِصْفِ مِيلٍ تقريبًا، فبلغْتُها بعدَ زمنٍ قليلٍ.

وكان المَرْسَى صخريًّا، فأَرْسَيْتُ فيه زَوْرَقِي، وَتَسَلّقْتُ الصُّخُورَ، فرأَيتُ أرضًا فسيحة تمتدُّ منَ الجنوبِ إلى الشَّمالِ، فعُدْتُ إلى زَوْرَقِي، وقَضَيْتُ لَيْلَتِي فيه.

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ باكِرًا واصَلْتُ تَجْدِيفِي حتى بلغتُ الطَّرَفَ الجنوبيَّ الشرقيَّ من «هولندا الجديدةَ»، في الساعةِ السابعةِ.

ولم أَجِدْ في ذلك المكانِ أحدًا من السُّكّانِ. وقد خَشِيتُ أن يُصِيبَني سُوءٌ إذا أَوْغَلْتُ في الجزيرة، لأنّني أعْزَلُ. فلزِمْتُ شاطئَ البحرِ، وأكَلْتُ شيئًا من المَحارِ نَيِّئًا؛ لأنني خَشِيتُ أن أُوقِدَ النارَ فيفطنَ إلى مكاني أحدٌ من هَمَجِ الجزيرةِ.

وظَلَلْتُ قانِعًا بهذا الطعام أيامًا ثلاثة، مُحْتَفِظًا بزادي القليلِ ليَنْفَعَني في وقتِ الحاجةِ. ولم أجرُؤْ على البعْدِ عنِ الشاطئِ، حتى لا أُعَرِّضَ نفسي للأخطارِ. وقد وجدتُ — لحسنِ حظِّي — غَدِيرَ ماءٍ صالحٍ لِلشُّرْبِ، بالْقُرْبِ منِّي.

فلما جاء اليومُ الرابعُ، جازَفْتُ فبَعُدْتُ عنِ الشاطئِ قليلًا. ولم أكَدْ أفعلُ حتى رأيتُ جَمهرةً منَ الْهَمَجِ، يَتَرَجَّحُ عددُها بينَ العشرينَ والثلاثين، وهي جاثِمَةٌ على يَفاعٍ منَ الأرضِ لا يَبْعُدُ عَنِّي أكثرَ من خَمْسِمائةِ خُطوةٍ.

ورأَيتُ الْهَمَجَ، عُراةَ الأجْسامِ — رِجالًا ونِساءً وأطْفالًا — وقد جلسُوا حَوْلَ نارٍ دَلَّني عليها دُخَانُها.

ولَمَحَني أحدُهم فَنبَّهَ رِفاقَه إليَّ؛ فأَسْرَعَ نَحْوِي خمسةٌ منهم. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا منَ الفِرارِ إلى الشاطئِ، حتى بلغْتُ قارِبي، ولم أدَّخِرْ جُهدًا في التَّجْديفِ هَرَبًا من شَرِّهم.

ولما رأَى الْهَمَجُ أنَّ فريسَتَهم تكادُ تُفْلِتُ من أيْديهم عَدَوْا خَلْفِي، حتى إذا يَئِسُوا منَ اللَّحاقِ بِي أطلقَ عليّ أحدُهم سهمًا، فأصابني في رُكْبَتي الْيُسْرَى، وجَرَحَنِي جُرْحًا بَلِيغًا لَنْ يُمْحَى أَثَرُهُ مِنْ جِسْمِي حَتَّى أَمُوتَ. وضاعَفْتُ قُوَّتي في التَّجْديفِ، حتى أصبحتُ أبعدَ من مَرْمَى سِهامِهم. وكان الجوُّ صَحْوًا، فعصَرْتُ الجُرحَ، وضَمَدْتُه جهدَ طاقَتِي، وأنا أَخْشَى أن يكونَ السهمُ مسمومًا، لكِنَّ اللهَ سَلَّمَ.

(٣) سَفينَةٌ أورُوبِّيَّةٌ

واشْتَدَّتْ حَيْرَتي وارْتباكي؛ فقد أصبح منَ الْمُحالِ عليَّ أنْ أُجازِفَ بالْعَوْدةِ إلى الْمكانِ الذى اعْتَدَى عليّ الْهَمَجُ فيه. ولَمَحْتُ شِراعَ سفينةٍ يَلُوحُ ويَستَخْفِي بين لحظةٍ وأُخرى، فلم أَشَأْ أن أَلْحَقَ بالسفينةِ، حَذَرًا من أن تَرْجِعَنِي إلى بلادي، وتَحرمَنِي لَذَّةَ الوَحْدَةِ والْعُزْلةِ في جزيرةٍ مُقْفِرَةٍ. وقد كنتُ أُوثِرُ الْموتَ عَلَى أنْ أعودَ إلى مُخالَطَةِ «الْياهُو» مرةً أخْرى.

فحوَّلْتُ زَوْرَقِي ناحِيةَ الشاطئ، ورَسَوْتُ في خليجٍ صغيرٍ، وعَزَمْتُ على أنْ أُسَلِّمَ نفسي لأَوَّلِ مُتَوَحِّشٍ يَلْقاني ليقتُلني؛ فإِنَّ الْموتَ أَحَبُّ إلى نفسي من لِقاء تلك الدوابِّ الآدميةِ الْمتحضِّرةِ.

ولما دَنَوْتُ منَ الشاطئ تركتُ الزورقَ، واخْتَبأْتُ خَلْفَ صخرةٍ قريبةٍ منَ الْغديرِ. ولبِثتُ قليلًا؛ فرأيتُ السفينةَ تقتربُ منَ الْخليجِ، ثم تَرْسُو على مسافة نصفِ ميلٍ منه، ثم تُرْسِلُ زَوْرَقَها — وفيه بِرْمِيلان — لِيَمْلأَهما الْمَلَّاحُونَ ماءً.

وَأدركتُ — حينئذٍ — أن هذا الْمكانَ معروفٌ مَطْرُوقٌ. فلما دَنا مَلَّاحُو السفينةِ مِنِّي لم أَجِدْ مُتَّسَعًا للفِرارِ، فلبثتُ في مكاني مختبئًا.

ورأى الْمَلَّاحُونَ قارِبي، فعَجِبوا من وُجُودِه في ذلك الْمكانِ، وفَتَّشُوهُ؛ فأدرَكوا أنَّ صاحبَه قريبٌ منه. وسار أَربعةٌ منهم مُسَلَّحِينَ يُفتِّشُون، حتى عثَروا عليَّ مختبئًا خلفَ الصخرةِ، ورأَوْني راقدًا ووَجْهِي إلى الأرض؛ فدَهِشوا مما رَأَوْا.

واشْتَدَّتْ دهشتُهم حينَ أبصروا ثيابي الْمصنوعةَ من جلدِ الأرانبِ، وحِذائِي الْخشبيَّ، وجَوْرَبِي الْغريبَ الْمنظَرِ. وَأَيقنوا أَنني لستُ من أَهلِ الْبلادِ؛ لأنَّ أَهْلَها جميعًا منَ الْهَمَجِ الْعُراةِ.

(٤) حِوارُ الْمَلّاحِين

وأَمرني أَحدُهم أَنْ أَقِفَ — وكان يُخاطِبُني باللُّغَةِ الْبُرْتُغالِيَّةِ — وسأَلَنِي متعجِّبًا: «من أَنت؟»

فأجبتُه بالبرتُغاليةِ، وكنتُ أُجيدُها: «إِنَّني «ياهو» مِسكينٌ، نَفَتْنِي سادةُ الْجيادِ منْ بلادِها، وإِني أُقسِمُ عليك أن تتركَني وشَأْنِي!»

فَدَهِش الْمَلَّاحُونَ مما سمِعُوا، وعجِبُوا إذْ رأَوْني أُجيدُ لغتَهم، وأيقنُوا أنني أَوْرُوبِّيٌّ. ولكنهم لم يفهموا ما أَعْنِيه بكلمةِ «ياهو» ولم يعرفوا شيئًا مما أعرفُهُ عنِ السادةِ الْجيادِ، فلم يتمالكُوا أنْ يَضْحَكُوا؛ لأن لهجَتِي التي حدثتُهم بها كانت لهجةً جَوادِيَّةً صاهِلَةً، لم تألْفها آذانُهم من قبلُ!

أما أنا فقد عَرَتْنِي هِزَّةٌ ورِعْدَةٌ شديدتان، حينَ رأيتُ هذه الدوابَّ الآدميةَ أمامي، والْتمستُ منهم ضارِعًا — أن يتركوني وشَأْني. وهَمَمْتُ أَنْ أذْهَبَ إلى زَوْرقي؛ فلم يسمحُوا لي بذلك، وأمسكُوا بتَلابِيبِي، وسألوني: «مِنْ أيِّ البلادِ أنت؟ ومن أين قَدِمْتَ الآن؟»

فقلتُ لهم: «نشأتُ في «إنجلترا»، وقد غادرتُها منذُ سنواتٍ خمسٍ، وما أنا إلَّا «ياهو» حقيرُ القدرِ، ضَئِيلُ الخطَرِ. وقدِ اعتزمتُ أن أقضِيَ ما بَقِيَ من حياتيَ الشَّقِيَّةِ التَّعِسَةِ في عُزلةٍ عن الناس.»

فدهِش البُرتغالِيُّونَ مما سمِعوا، وعجِبوا من جَرْسِي الصَّاهلِ ولهجَتِي الغريبةِ، وإن كانوا قد فهِموا ألْفاظِي كلَّها.

ولم تكُنْ دهشتي من لَهَجاتِهم بأَقَلَّ من دهشتِهم من لهْجَتِي؛ فقد حَسِبْتُنِي أَمامَ عجيبةٍ خارِقَةٍ من غَرائبِ الطبيعةِ الشاذّةِ، وخُيِّلَ إليَّ — وأنا أُنْصِتُ لحِوارِهم — أنني أَسمَعُ بقرةً أَو كلبًا يتكلّمان في بلادِنا، أَو «ياهو» يتكلمُ في جَزِيرَةِ الجيادِ الناطقةِ.

ولا أَكْتُمُ أَنَّهم تَلَطَّفوا بي، ولم يتركوا جُهدًا في مُلايَنَتي والتَّرْفِيهِ عن نفسي، وأكَّدُوا لي أَن رُبَّانَهم — وهو مِثالُ الوَداعةِ ودَماثةِ الْخُلُقِ — سَيَحْتَفِي بمقدَمِي، ويُكرِمُ وِفادَتِي، ويُقِلُّني في سفينتِه من غيرِ أَجرٍ، حتى أَصِلَ إلى «لِشْبُونَةَ»؛ حيثُ يسهُلُ عليّ السفرُ منها إلى «إنجلترا».

ثم أَوفدوا اثنيْنِ منهما لمقابلةِ الرُّبان والإِفْضاءِ إليه بما عَرَفاهِ من أَمْرِي، وطلبوا إليَّ — بعد أَن شَدُّوا وَثاقِي — أَن أُقسِمَ بِشَرَفِي أَنْ أَكُفَّ عن مُحاولةِ الهرَبِ. فلم أَرَ وسيلةً تُمْكِنُني من مُخالفتِهم، فأجبتُهم — مُرْغَمًا — إلى ما اقْتَرحُوه.

وكانوا مَشغُوفِينَ بتعرُّفِ قِصَّتِي، وما وَقَعَ لي منَ الأحداثِ والخُطوبِ؛ فَقَصَصْتُ عليهم طَرَفًا يسيرًا مما حدث لِي، لَعلِّي أُرْضِي فُضُولَهم. فتعاظمتْهمُ الدهشةُ، وحَسِبوا أَنَّ الْكوارِثَ التي حَلَّتْ بي قَدْ أَضاعَتْ عَقْلِي وصَيَّرَتْنِي أَهْذِي دُونَ أَن أَعرِفَ ما أَقولُ.

وبعدَ ساعتينِ عاد الزَّوْرَقُ والْمَلَّاحانِ، وأَبلغا رَفِيقَيْهما أَن الرُّبّانَ قد أَمر باسْتِدْعائِي إليه. فَجَثَوْتُ على رُكْبَتي ضارِعًا إليهم أَنْ يتركونِي حُرًّا؛ فلم يقبلُوا رَجائِي، وحملُوني — عَنْوَةً — إلى الزَّوْرَقِ، ومَضَوْا بي، حتى بلَغْنا غُرْفَةَ الرُّبانِ.

(٥) حَفاوَةُ الرُّبَّانِ

وكان الربانُ — على الحقيقة — غايةً في الوَداعَةِ والتلطُّفِ والأدبِ؛ فاحتفى بمقدمي، وهَشَّ لِي وبَشَّ، وسألني مُتَوَدِّدًا عن حقيقةِ أمري، وعمَّا تشتهيه نفسِي من طَعامٍ وشَرابٍ، وأَكَّدَ لي أَنه لَنْ يُعامِلَني إلَّا مُعاملةَ الأخِ أَخاهُ، والنِّدِّ نِدَّهُ، فدَهِشتُ من هذه الأخلاقِ الفاضلةِ، وعجِبتُ كيف تتحلَّى بمثْلِها دابةٌ آدميّةٌ مِثْلُه.

ولكِنَّنِي لَزِمْتُ العُبُوسَ وآثَرْتُ الصَّمْتَ، وكاد يُغمَى عليّ حين شَمِمْتُ رِيحَه ورِيحَ مَنْ حَوْلَه من رِجالِه. وطلبتُ أَن آكلَ منَ الزادِ الذي أَعددتُه في زَوْرَقي، ولكنَّ الربانَ أَمر رجالَه أن يُعِدُّوا لي دَجاجَةً وشَيْئًا منَ الشّرابِ الفاخرِ. ثم أَعَدُّوا لي سريرًا نظيفًا في غُرْفَةٍ مُنْعَزِلَةٍ؛ فلم أَنْزِعْ ما عليَّ منَ الثّيابِ، وانْطَرَحْتُ على السَّريرِ زُهاءَ نِصْفِ ساعةٍ. ثم استيقظتُ، فخرجتُ من غرفتي ثائِرًا، وهَمَمْتُ أَنْ أَقْذِفَ بنفسي إلى البحرِ وأَعودَ سابحًا من حيثُ أَتَيْتُ، لِأَخْلُصَ من مُعاشرةِ هذه الدوابِّ الآدميّةِ البَشِعَةِ.

ولكن أَحَدَ الْمَلَّاحِينَ حانَتْ منه التِفاتةٌ فأدرك ما هَمَمْتُ به، وحالَ دُونَ تحقيقِ ما أَردتُ. ولما علِم الربَّانُ بما حدثَ أَمرَ أَعوانَه بشَدِّ وَثاقِي، حتى لا أُحاوِلَ مثْلَ ذلك مرةً أُخرَى.

ولما انتهَوْا من طعامِهم جاءنيَ الرُّبّانُ لِيَتَعرفَ أَسبابَ سُخْطِي وأَلَمِي، وتلطّف معي في القولِ، وحادَثَنِي في أُسلوبٍ مُؤَثِّر ولهجةٍ تَفِيضُ حنَانًا ورِقَّةً، وطلب إِلَيَّ أَن أُفْضِيَ إليه بدِخْلَتِي. فأَنِسْتُ إليه شَيْئًا، وبَدَأْتُ أَرَى فيه دابَّةً على شيءٍ من التَّعَقُّلِ؛ فَرَوَيْتُ لَهُ — في إيجازٍ — قِصَّتِي مع الْمَلَّاحِينَ الذين ائْتَمرُوا بي، وما أَعْقَبَها منْ مُفاجآتٍ؛ فَخُيِّلَ إِليه أنه يسمعُ رُؤًى وأَحلامًا.

وقد آلَمَني ما بدا عَلَى سِيماه من أَماراتِ الاِرْتِيابِ والشَّكِّ في صِدْقِ ما أَقولُ. وكنتُ قد نَسِيتُ في أَثْناءِ إقامَتِي في تلك البلادِ أَن الإِنسَ يَكْذِبونَ، وأَنهم — وحدَهم — قدِ انفردوا من بينِ دَوابِّ الأَرضِ كُلِّها بالشَّكِّ فيما يسمعون، والكَذِبِ فيما يُحَدِّثون.

فسألتُ مدهوشًا: «هل تَعَوَّدْتُم في بلادِكم أَنْ تذكروا شيئًا لا حقيقةَ له؟ أَلم يُقْلِعْ أَبناءُ آدمَ عن عادةِ الكَذِبِ إلى اليومِ؟ لقد عِشتُ بين ظَهْرانَي الجيادِ زمنًا طويلًا، لَمْ أَسمعْ

كِذْبَةً واحدةً؛ من سادَتِهم وخَدَمِهم على السَّواءِ. ولَوْ عِشْتُ معهم أَلفَ سنةٍ لما سمعتُ من أَصْغَرِ خَدَمِهم خَبَرًا واحِدًا غَيْرَ صَحِيحٍ. فما بالُكم — يا معشرَ «الْياهُو» — تَرْتابُون فيما تَسْمَعُون؟ على أَنني أَتركُ لك الْحُرِّيَّةَ في تَصديقِ ما أَقولُ، أَوِ الشَّكِّ فيه!» ولم أَشَأْ أَن أَتلكَّأَ في إجابتِه عن أَسئلتِه: لأنني رأَيتُ من سَجاحَةِ أَخلاقِه ما دفعني إلى الإِغْضاءِ عما أَلِفَتْه طبيعةُ «الْياهُو» التي لا مَعْدَى له عَنها، فأَجبتُ عن أَسئلتِه كلِّها في بَساطة وصَراحةٍ. وكان عاقِلًا ذَكِيًّا بعيدَ النظرِ؛ فلم يلبَثْ أن أخذَ بكلامي، واعْتَقَدَ الصِّدْقَ فيما قلتُ. ثم التَفتَ إليَّ قائلًا: «مادُمْتَ مُتَمَسِّكًا بالْفضيلةِ إلى هذا الْحَدِّ، فإني أرجو أنْ تَعِدَني — وتُقْسِمَ بشَرَفِك أن تُحقِّقَ وعْدَك — أن تَبْقَى معنا طولَ الرِّحلةِ، وإلَّا اعْتَقَلْتُك في غُرفتِك حتى تَصِلَ إلى لِشْبُونَةَ.»

فعاهدتُه على إجابتِهِ إلى ما طلبَ، بعد أن أَفضيتُ إليه بمَقْتِي للدَّوابِّ الآدميّةِ كلِّها، ونُفُورِي من لِقائِها والْعَيْشِ بين ظَهْرانَيْها.

(٦) نِهايَةُ الرِّحْلَةِ

ومرّتْ أَيامُ الرحلةِ كلُّها من غيرِ أن يُصِيبَنا مَكْرُوهٌ أَوْ يقَعَ لنا حادِثٌ يستحِقُّ الذِّكْرَ. وكان الرُّبانُ يُلِحُّ عليَّ — في كثيرٍ منَ الأحيانِ — أَن أَتحدّثَ إليه، فَلا أُخَيِّبُ رَجاءَه لدَماثَةِ خُلُقِه. وقد بذلتُ جُهْدِي في إخْفاءِ كراهِيَتِي لهذا الْجِنْسِ الآدميِّ الْممقوتِ، ولكنّ بَوادِرَ هذا النُّفُورِ كانت تظهرُ على الرَّغْمِ مني أَحيانًا، فَيُغْضِي عنها الرُّبّانُ مُتظاهرًا بأنه لم يفطنْ إلى شيءٍ مما رَأى.

وقد أَلَحَّ عليّ فِي أَن أَخلعَ ثيابي — التي صنعتُها من جلدِ الأرانبِ — ليُلبسَني غيرَها؛ فشكرتُ له ذلك، واسْتَبْشَعتُ أَن أَضعَ على جسمي ثِيابًا ارْتَدَتْها دابةٌ آدَمِيَّةٌ قَبْلي!

وسأَلتُه أَن يُقْرِضَنِي قميصَيْنِ أُجِيدَ غسلُهما، لأُداوِلَ بينهما في ارْتِدائهما.

وفِي اليوم الخامسَ عَشرَ من نوفمبر وصلْنا إلى «لِشْبُونَةَ.»

وقد أَرغَمَنِي الربانُ على ارتداءِ مِعطفهِ، قبلَ أَن أَهبِطَ إلى المدينةِ؛ حتى لا يَسْخَرَ مني غَوْغاءُ الناسِ وأَوْشابُهم في الطريقِ.

(٧) في بَيْتِ الرُّبّانِ

ثم ذهب بيَ الرُّبانُ — واسْمُه الدُّوقُ «بِتْرُو» — إلى بيتِه، فألْحَفْتُ عليه أَن يُنزلَنِي حُجْرَةً مُنْعَزِلَةً بالطَّابَقِ الأعلَى، وأقسمتُ عليه أن يكتُمَ أمرِي عن جميع الناسِ؛ حتى لا تتهافتَ عليَّ جَماهيرُهم، فتزْعجَني وتُقِضَّ مَضْجَعِي وتُكَدِّرَ صَفْوِي، فضلًا عَمَّا تَجُرُّه علَّي من تَحْقِيقِ رجالِ التّفْتِيشِ وأَسْئِلَتِهمُ التي لا تنتهي بغيرِ القتلِ والإحراقِ.

وأَلَحَّ عليّ الدُّوقُ في أن أرتديَ ثوبًا جديدًا فلم أقبلْ، وأَبَيْتُ أن أسمحَ للخَيّاطِ بتفصيلِ الثوبِ على قَدِّي؛ حتى لا تَمَسَّ جسمي يَدُهُ. وكان الدوقُ «بِتْرو» في مِثْلِ قامَتي تقريبًا، فأعطاني ثوبًا جديدًا — فَصَّلَه الْخياطُ عَلَى قَدِّهِ — لألْبَسَه.

وكان الدوقُ عَزَبًا، وليس في بَيْتِه إلَّا ثلاثةٌ منَ الْخَدَمِ.

وَقَدْ أجابني إلى طِلْبَتي، فلم يَأْذَنْ لأحدٍ منهم بالوقوفِ على الْمائدةِ، في أثناءِ الطعامِ. فَشَعَرْتُ له بشيءٍ منَ التقديرِ، لِما رأيتُه من حسنِ أدبِهِ وتَلَطُّفِه. وكان له عقلٌ نادرٌ إذا قِيسَ إلى عُقُولِ أقرانِه من الدوابِّ الآدميةِ. فَأَطَعْتُه، وأَذْعَنْتُ لإرادتِه حين زَيَّنَ لي أن أُطِلَّ من نافذةِ الْحُجْرَةِ الْمُشْرِفةِ على فِناءِ دارِه. وما زال بي حتى أنزَلنِي حُجْرَةً أخرى تُشرفُ على الطريق العامِّ. وكان يُزَيِّنُ لِنَفسي أَنْ أُطِلَّ منَ النافذةِ، لَعَلِّي آلَفُ رُؤْيَةَ الناسِ؛ فلا أكادُ أفعلُ حتى أتراجعَ فزِعًا من بَشاعَةِ ما أَرَى مِنْ سَحَناتِ «الْياهُو». ثم استدرجَني إلى الْجُلُوسِ أمامَ البيتِ، بعدَ ثمانيةِ أيامٍ.

ولما جاء اليومُ العاشِرُ، قال لي مُتلطفًا: «لا مَناصَ لك منَ الْعودةِ إلى بيتِك، لتعيشَ بين أَوْلادِك وأَهْلِك. وقد علِمتُ أن سفينةً تتأهَّبُ اليومَ للسفرِ إلى «إنجلترا»، فَأَعْدَدْتُ لك مُعَدَّاتِ السفرِ. ولا يَدُورَنَّ بخَلَدِكَ أنك قادرٌ على تحقيقِ أَرَبِكَ في العُزْلةِ؛ فإنك لن تظفرَ — مهما تَبْذُلْ من جُهْدٍ — بجزيرةٍ قَفْراءَ كما تَحْلُمُ. وربما ظفِرتَ بالْعزْلةِ في بيتِك، حَيْثُ تَجِدُ منَ الرَّاحةِ ما لا تَجدُ في مكانٍ آخرَ.»

فلم أجِدْ بُدًّا منَ التَّسلِيمِ له بصِحَّةِ ما رآه.

(٨) فِي أرْضِ الوطَنِ

وهكذا غادرتُ «لِشْبُونَةَ» في اليومِ الرابعِ والعِشْرِينَ من نوفمبر، ورَكِبْتُ سفينةً تِجاريةً. وقد وَدَّعني «الدُّوقُ» وعانَقَنِي، فتحمَّلتُ هذا التَّلَطُّفَ على مَضَضٍ، دُونَ أَنْ أُبدِيَ أمامَه أقلَّ اشمئزازٍ أو نُفُورٍ!

وَتفضَّل عليَّ فأَقْرَضَني عِشْرِين جُنيهًا، فشكرتُ له صَنِيعَهُ هذا. ثم أَقلعَتِ السفينةُ، وانْتَبَذْتُ ناحِيَةً قَصِيَّةً فيها، وتظاهرتُ بالمرضِ حتى لا يدخُلَ حُجْرَتِي أَحدٌ من «الْياهُو».

وفي اليوم الْخامسِ من ديسمبر/كانون الأول عام ١٧١٥م أَلْقَتِ السفينةُ مَراسِيهَا في «دون»، وقد وَصَلَتْ إلى الْميناءِ في الساعةِ التاسعةِ من صباحِ ذلِكَ اليوم.

فواصلتُ السيرَ إلى بلَدِي «ردِيف»، حتى بُلِّغْتُهُ في الساعةِ الثالثةِ بعدَ الظُّهْرِ.

(٩) اجتماعُ الشَّمْلِ

وَما وَصَلْت إلى بَيْتي حتى لَقِيَتْني زَوْجتي وأَفرادُ أُسرتي، فَرِحِين مُسْتَبْشِرِين. وكانوا على يَأْسٍ من لِقائي، بَعْدَ أَنْ سَلَكُوني في عِدَادِ الهَلْكَى ولم تَعُدْ تَخطُرُ لهم عَوْدتي على بالٍ.

وقد ملأَتْهُمُ الغِبْطَةُ والسُّرورُ. أما أنا فَتَمَلَّكَنِي الحُزْنُ والكراهِيَةُ والغَمُّ، برَغْم تقديري لتلك الرابطةِ الوثيقةِ التي تجمعُني بهم؛ فقد تَأَصَّلَ في نفسي مَقْتُ «الْياهُو»، على اختلافِ مَراتبِه وأَجْناسِه: من نِساءٍ ورجالٍ، وشُيوخٍ وأطفالٍ، وأقارِبَ وأباعِدَ. وأصبحتُ — بعدَ أنْ أَلِفْتُ مُعاشَرَةَ الجيادِ الناطقةِ — لا أُطِيقُ رؤية الدوابِّ الآدميةِ، ولا أرتاحُ إلى لِقاءِ أحدٍ مِنْ هذا الْجِنْسِ. وكانتْ نفسِي مملوءةً إجلالًا وإكبارًا لتلك الجيادِ النبيلةِ، التي جَمَعتْ أشْرَفَ الصِّفاتِ وأكرَمَ الأخلاقِ.

وكنتُ كلما فكرتُ في أنني قد تَزَوَّجْتُ دابَّةً آدَمِيَّةً وأصبحتُ والِدًا لِدَوابَّ آدميّةٍ أُخرى، شَعَرْتُ بخَجَلٍ عظيم، وتمثَّلَ لِيَ العارُ والشقاءُ!

ولم أَدخلِ المنزلَ حتى ضَمَّتْني زَوْجَتِي إِلَيْها وطَوَّقَتْنِي بِذِراعَيْها وقَبَّلَتْني وهي فرحانةٌ بِعَوْدتي إليها؛ فلم أُطِقْ صبرًا على ذلك.

وكنتُ قد تعوّدتُ ألَّا أَمَسَّ أحدًا منَ «الْياهُو» منذُ سنواتٍ، فخانَتْنِي قُوايَ وانتابَنِي الضَّعفُ؛ فأُغْمِيَ عليّ وهَوَيْتُ إلى الأرضِ، وَبقِيتُ في غَشْيَتِي زُهاءَ ساعةٍ، ثم عُدْتُ إلى صَوابي.

(١٠) في صُحْبَةِ جَوَادَين

وَانْقَضَى عَلَى عَوْدَتِي سَنَواتٌ خَمْسٌ قَبْلَ أن أَقْوَى عَلى حَمْلِ القَلَمِ لكتابَةِ هذهِ الرِّحْلةِ التِي أَقُصَّ أخْبارَها عَلَى القارِئ.

وَلَمْ أَكُنْ أُطِيقُ رُؤيَةَ زَوْجتي وولديَّ خِلالَ العامِ الأوَّلِ. وكانت رائِحتُهم تملأُ نَفسي نُفُورًا وتَقَزُّزًا. وكنتُ أشعُرُ بألمٍ شديدٍ كلما رأيتُهم يَجلِسون معي ولم أَكُنْ أُبِيحُ لِواحِدٍ منهم أنْ يَمَسَّ خُبْزِي أو يَشْربَ من قَدَحِي، أو يَلْمسَ يَدِي.

وقد انْتَهَزْتُ أولَ فُرصةٍ سَنَحَتْ لي، فاشتريتُ مُهْرَيْن، وأَعْدَدْتُ لهما الإصْطبلَ حَيثُ أنْزَلْتُهُما أحسنَ حُجْرَةٍ. وكنتُ آنَسُ بقُرْبِهما وأَرتاحُ إلى مُحاوَرَتِهما. ويُنْعِشُني طِيبُ رائحةِ الإِصْطَبْلِ، كما أَهَشُّ لِلسَّائِس وأَطْرَبُ لرائحتِه الذَّكِيَّةِ التي اكتَسَبها من جَوِّ الإِصطبلِ المُعَطَّرِ وعِشْرَةِ الجوادَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ. وَقَدِ اتّخذتُه لِي جَلِيسًا ومُؤْنِسًا.

وكنتُ أُحَمْحِمُ صاهلًا معَ الجوادَيْن، وتدورُ بيننا مُحاوَراتٌ صاهِلةٌ، قُرابَةَ ساعاتٍ أربعٍ على الأَقَلِّ في كلِّ يومٍ. وكانا يُجِيدان فَهْمَ ما أقولُ.

ولم أَكُنْ أدّخِرُ وُسْعًا في العِنايةِ بأمرِهما، وتَلْبِيَةِ رَغَباتِهما.

وقد عاشا معي في صَفَاءٍ ودَعَةٍ وانْشِراحٍ، ولم يَمَسَّ جَسَدَيْهِما سَرْجٌ ولا لِجامٌ.

الفصل الثاني عشر

(١) صِدْقُ الرِّوايَةِ

لقد صَدَقْتُك الحديثَ — كما رأيتَ أيها القارئُ الشريفُ — وتَوَخَّيْتُ الأمانةَ فيما نَقَلْتُه لك عن رِحْلاتِي، خِلالَ بِضْعَةِ أيامٍ وسبعةِ أشهرٍ وسِتَّةَ عَشَرَ عامًا.

وقد عُنِيتُ — في هذا الكتابِ — بالصحيحِ منَ الأَحاديثِ، أكثرَ مما عُنِيتُ بزُخْرُفِ القولِ ومُونِقِ اللفظِ.

وقد كان في وُسْعِي — لوِ ارْتَضَيْتُ نَهْجَ غيرِي منَ السائحينَ — أن أُمْتِعَ نَفْسَكَ وأُسْكِنَ البَهْجَةَ في خَلَدِكَ، بما أُزَوِّرُه لك من عَجيبِ الأقاصيصِ وغَريبِ الْحوادثِ التي لا تَمُتُّ إلى الحقيقةِ بنَسَبٍ. ولكنَّنِي اخْتَرتُ الصحيحَ الثابِتَ، وارتَضَيْتُ الأُسْلُوبَ السَّهْلَ، وآثَرْتُهُ على الخيالِ الرائع والْعِبارَةِ الْمُنَمَّقَةِ. وأَخَذْتُ نفسي بإرْشادِك وتعليمِك، وَلمْ أَشَأْ أن أُسَلِّيَك وأُرَفِّهَ عن نفسِك بأَقاصيصَ لا أَصْلَ لها.

ولم يكُنْ أيسرَ علينا — مَعْشرَ السائحِينَ في تلك الأَصْقاعِ النَّائِيَةِ، التي لا تكادُ تَطَؤُها قَدَمُ مُتَحَضِّرٍ — من أن نَصِفَ لك عجائبَ الدوابِّ البحْريةِ والبَرِّيةِ. ولكنني لم أفعلْ شيئًا من ذلك؛ لأنَّنِي أعتقدُ أنَّ أوَّلَ واجِباتِ الكاتبِ الْمَعْنِيِّ بالأَسْفارِ، أنْ ينصَرِفَ إلى تثقيفِ الإِنسانِ وتَهْذِيبِهِ، وَيُعْنَى بِتَوْسِيعِ مَدارِكِه وتوفيرِ معرفتِه وتَقْويمِ ذكائِه، بما يَعْرِضُه عليه منَ الْمُثُلِ الْعُلْيا والْفاسِدَةِ على السَّواءِ؛ مما يراه فِيما يَرْتادُ مِنْ أرْجاءٍ سَحيقةٍ لا عهدَ لأحدٍ برؤيَتِها.

ولَكَمْ تَمَنَّيْتُ — مِن كلِّ قَلْبِي — أن تَسُنَّ الحكومةُ قانونًا يَفرِضُ على كلِّ سائحٍ أن يُقْسِمَ بمُحْرِجاتِ الأَقسامِ — قبلَ أنْ يُؤْذَنَ له في نَشْرِ رِحْلاتِه — أن يَتَوَخَّى الصحيحَ في كلِّ ما يكتُبه ويطبَعُه. وأن يَبذُلَ قُصارَاهُ في نُصْرَةِ الحقِّ والْتِزامِ الصِّدقِ. وثَمَّةَ يأمَنُ الناسُ خِداعَ الكُتَّابِ الذين تدفَعُهُمُ الرغبَةُ في التَّنادُرِ وحبُّ الرَّواجِ لمؤلَّفاتِهم إلى تَنَكُّبِ الْجادَّةِ، وَحَشْدِ الأغاليطِ والْمُفْتَرَياتِ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي تُسَمِّمُ عقلَ القارئِ البريءِ.

لَقَدْ قرأتُ — في شَرْخِ شَبابي — كثيرًا من كُتُبِ الرَّحَّالِينَ، وأُعجِبْتُ بما تحْوِيها مِنْ طُرَفٍ وغَرائِبَ، ثم تَبَيَّنْتُ ما فيها من زُيُوفٍ وَأَوْهامٍ وَخُرافاتٍ، بعد أنْ جُبْتُ بنفسِي كثيرًا منَ الأَصْقاعِ النائيةِ.

وقد عافَتْ عَيْنِي — لهذا السببِ — مُطالَعَةَ كثيرٍ من تلك الأَسْفارِ، وامتلأتْ نفسي بالمَقْتِ والاِحتقارِ لأولئك الذين يستهِينُون بالحقِّ ولا يحرِصُون على الصِّدْقِ، بل يتعمَّدُون خِداعَ الناسِ وتَضْلِيلَهم، فلا غَرْوَ إذا أخذتُ نفسِي بِتَوَخِّي الدِّقَّةِ والتِزامِ الصَّحِيحِ فِيما قَصَصْتُه على القارئِ؛ لَعلَّهُ يَجِدُ في تلك الْجهودِ الضعيفةِ — التي بَذَلْتُها لخدمةِ الحقيقةِ — فائدةً له.

ولقد كان للجيادِ الناطقةِ — التي أَقَمْتُ بين ظَهْرَانَيْها زمنًا غيرَ قصيرٍ — أكبرُ الفضلِ في هذا الحرصِ النادرِ وتلك الغَيْرَةِ الشديدةِ على الصِّدْقِ. وما زِلتُ مَدِينًا لِلْجِيادِ بكل فضيلةٍ تَحَلَّيْتُ بها إلى الآن.

(٢) غايَةُ الْمُؤَلِّفينَ

ولستُ أجهلُ أنَّ أمْثالَ تِلْكَ الْمؤلَّفاتِ لا تَحْتاجُ إلى عبقريَّةٍ، ولا تَقْتَضِي من صاحبِها اطِّلاعًا واسِعًا ولا خِبْرَةً نادِرَةً ولا ذاكِرَةً واعِيَةً. كَلَّا، وَلَنْ تُكْسِبَه مجدًا باقيًا؛ لأنَّ مُؤلِّفيها قَلَّما يختلِفون عن مُؤَلِّفي المعاجِمِ الُّلغَوِيَّةِ: لا يَنْتَهُون من تأليفِ مَعاجِمِهم حتى يُضفِيَ عليهمُ النِّسيانُ أذْيالَهُ؛ ذلِكَ بِأَنَّ مُؤَلّفي المعاجِمِ التي تَعْقُبُهُمْ قد بَذَلُوا جُهودَهم إلى جُهودِ سابِقيهم، وأضافوا مَعارِفَهم إلى مَعارِفِ مَنْ تقدَّمَهُمْ؛ فأصبحتْ معاجِمُهُم العصريَّةُ أحفلَ بالْفائِدَةِ وأَجدرَ بِالْعنايةِ مِمَّا سَبَقَها.

وَلَنْ يَشُقَّ على السائحينَ الجُدُدِ أن يُضيفُوا — إلى ما أقُصُّه من الأخبار — طرائفَ وبدائعَ لم أفطنْ إليها، أو يحذِفُوا ما وَقَعْتُ فِيه مِنْ هَنَواتٍ — إن وُجِدَتْ — فيُصْبِحُوا بذلك أجدرَ منِّي بالتقديرِ. ثم يَنْسَى العالَمُ كلَّ ما قَدَّمْتُ له من حقائِقَ وأَنْباءٍ.

على أَنني لم أحفِلْ بشيءٍ من هذا كُلِّه؛ لأنني لا أَبْغِي الْخُلُودَ بما كَتَبْتُ ولا أَطمعُ في الثَّناءِ، وإنَّما أَبْغِي العِظَةَ وأَتَوَخَّى الفائدةَ. وقد أَثْبَتُّ أثارَةً مما عرَفْتُهُ من فضائلِ الجيادِ الناطقةِ؛ لِيَرَى العاقِلُ الحَصِيفُ مدى ما يشعرُ به مِنْ أَسَفٍ، إذا قاسَ فَضائلَهُ إلى فَضائلِ هؤلاءِ السَّادةِ الأمْجادِ!

وليس بعدَ هذه الْمَرْتَبَةِ غايةٌ يَتَوَخَّاها مُؤلِّفٌ يَنْشُدُ الإصلاحَ.

وحَسْبِي أنْ أكونَ ناقِلًا أمينًا لا يُزَحْزِحُه الْهَوَى، ولا تُعْمِيهِ الأغراضُ. ولستُ أطمَعُ — بعد هذا — في ثَناءٍ لا أَسْتَحِقُّه، فَما تَوَخَّيْتُ — بِما كَتَبْتُ — غَيْرَ الْحَقِّ والإِنصافِ.

(٣) آراءُ النَّاقِدِينَ

ولقد أَشار عليّ بعضُ النُّقَّادِ — هامِسِينَ في أُذُني — أنْ أُعِدَّ تقريرًا بما كشفتُ عنه مِنَ البُلْدانِ النَّائيَةِ؛ لتُضِيفَها الدولةُ إلى فُتُوحِها، وتَرْفَعَ عَلَمَها على أَرْجائِها السَّحِيقَةِ.

ولكنني لم آخُذْ بنصيحَتِهم لبُعدِها عنِ الصَّوابِ؛ فإِنَّ أَقْزَامَ «لِيلِيبوت» لا يُساوُونَ ثَمَنَ الأسلحةِ التي نُعِدُّها لِلْإِغارةِ عليهم. وليس من رَجاحَةِ الْعقلِ أن نُهاجِمَ عَمالقةَ «برُبْدِنْجاجَ»، ولا أصحابَ الْجزيرةِ الطائرةِ، ولا الجيادَ الناطقةَ، كَلَّا، وَلا سَبِيلَ إلى اسْتعبادِهم، ولا فائدةَ لنا من إخْضاعِهِمْ على أيِّ حالٍ.

(٤) أحْلامٌ وأمانِيّ

أَمَّا بَعْدُ: فَلْيَأْذَنْ لي القارئُ في أن أُوَدِّعَهُ، وأَخْلُوَ إلى أحلامِي وأمانِيَّ، وأُمْتِعَ نفسي بمحادَثةِ جَوادَيَّ اللذين اشْتَرَيْتُهما، وأَنِسْتُ بِقُرْبِهما، وفُتِنْتُ بمنظرِهما، وشُغِلْتُ بهما عن كلِّ شَيْءٍ.

ولا أكتُمُ أنني كنتُ لا أُطِيقُ رُؤْيَةَ الآدَمِيِّينَ — كما أَسْلَفْتُ القولَ — وَأَنَّنِي ظَلَلْتُ أُرَوِّضُ نَفْسِي على رُؤْيَةِ صُورَتي؛ في الْمِرْآةِ تارَةً، وفي صفحةِ الْماءِ تارَةً أُخرى، حتى قَلَّتْ بَشاعَةُ مَنْظَرِي في عَيْنَيَّ.

وقد سَمَحْتُ لِزَوْجَتِي — للمرّةِ الأُولى — في الأُسبوعِ الْماضي أن تأكل معِي على مائدةٍ واحدةٍ طويلةٍ، على أن تجلسَ في طَرَفِ الْمائِدَةِ وَتَتَوَخَّى الإيجازَ في إجابَتِها عن أسئلتِي.

وكنتُ — أوَّلَ أمري — لا أُطِيقُ رؤيةَ «ياهو» بلادِنا، ولا أحتملُ قُرْبَهُم؛ فأُضْطَرُّ إلى سَدِّ أنْفي حتَّى لا تُؤْذِيَني رائِحَتُهم.

وليس من السَّهْلِ على شَيْخٍ — في مِثْلِ سِنِّي — أن يُقْلِعَ عن طَبْعِهِ أوْ يُبَدِّلَ مِنْ عادَتِهِ، ولكنَّ أَمَلِي في إِصْلاحِ النَّاسِ وتَهْذِيبِ نُفُوسِهم، خَفَّفَ من نُفُورِي مِنْهم، ومَوْجِدَتي عليهم.

(٥) الْكِبْرِياءُ

كانَ مِنْ غَيْرِ الْمُحالِ — عَلَى أَيِّ حالٍ — أَنْ أُرَوِّضَ نَفْسِي عَلَى مُهادَنَةِ جُمْهُورِ «الْياهُو» والْإِغْضاءِ عَنْ مَساوِئِهِ، لَوِ ارْتَضَى لِنَفْسِهِ أَنْ يَقْنَعَ بِما تَوارَثَهُ: مِنْ نَقائِصَ رُكِّبَتْ فِي خِلْقَتِهِ، وحَماقاتٍ امْتَزَجَتْ بِفِطْرَتِهِ.

وَما كُنْتُ لِأَضِيقَ ذَرْعًا بِرُؤْيَةِ مَنْ أَلْقَى مِنْ مَرْضَى النُّفُوسِ؛ فَلَيْسَتْ نَقائِصُهُمْ — فِيما أَعْلَمُ — إِلَّا نَتِيجَةً مَنْطِقِيَّةً لِما تَأَصَّلَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ طِباعٍ.

وَلٰكِنَّهُمْ لا يَقِفُونَ عِنْدَ هذا الْحَدّ، وَلا يَكْتَفُونَ بِما رُزِئَتْ بِهِ أَجْسادُهُمْ وَأَرْواحُهُمْ مِنْ عاهاتٍ، فَيُضِيفُونَ إِلَى هذا الرُّكامِ — فِي غَيْرِ خَجَلٍ وَلا حَياءٍ — نَقِيصَةَ الْكِبْرِياءِ.

هُنا يَحْرَجُ صَدْرِي ويَنْفَدُ صَبْرِي، وتَشْتَدُّ حَيْرَتِي وَتَثُورُ ثَوْرَتِي، فأُسائِلُ نَفْسِي: مِثْلُ هذا الْحَيَوانِ، وَمِثْلُ هذهِ النَّقِيصَةِ!

تُرَى: أَيُّ وَسِيلَةٍ جَمَعَتْهُما، وَأَيُّ عَجِيبَةٍ أَلَّفَتْ بَيْنَهُما؟

وأَعُودُ بِذاكِرَتِي إِلَى الْجِيادِ النَّاطِقَةِ، فَأَراهُمْ — عَلَى الضِّدِّ مِنَ «الْياهُو» — قَدْ عَمَرَتِ الْحِكْمَةُ قُلُوبَهُمْ، وَسَدَّدَ الْعَقْلُ أَحْكامَهُم؛ فَلَمْ تُعْوِزْهُمْ مَنْقَبَةٌ مِنْ حَمِيدِ الْمَناقِبِ الَّتِي يَغْنَى بِها الْعُقَلاءُ.

وأَبْحَثُ فِي لُغَتِهِمْ عَنْ كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عَنِ الْكِبْرِياءِ: وَلِيدَةِ النَّقْصِ وَالْغَباءِ، فَلَا أَظْفَرُ بِطائِلٍ.

وَيَشْتَدُّ بِيَ الْعَجَبُ حِينَ أَرَى لُغَتَهُمْ تَخْلُو مُفْرَداتُها مِمَّا يُعَبِّرُ عَنِ الشَّرِّ. وَلَوْلَا لَفتاتٌ أَطْلَعَتْهُمْ عَلَى نَقائِصَ لَمَحُوها فِي طِباعِ «الْياهُو» لَما تَمَثَّلُوا لِلنَّقْصِ وُجُودًا ولا تَخَيَّلُوهُ.

عَلَى أَنّهُمْ لَمْ يُمَيِّزُوا نَقِيصَةَ الْكِبْرِياءِ هذِه، فِيما مَيَّزُوهُ مِنْ نَقائِصِ «الْياهُو». وَعُذْرُهُمْ قائِمٌ؛ فَقَدْ أَعْوزَهُمُ الدَّرْسُ الْواسِعُ وَالِاسْتيعَابُ الْجامِعُ، وَوَقَفَتْ بِهِمُ الْمَعْرِفَةُ، فَلَمْ تَزِدْ عَلَى دَرْسِ ما ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ أَخْلاقِ «الْياهُو» فِي جَزِيرَتِهِمْ حَيْثُ يُمْتَهَنُ خادِمًا، وَلَمْ يُتَحْ لَهُمْ أَنْ يَدْرُسُوا «الْياهُو» — كَما دَرَسْتُهُ فِي بِلادِي — حَيْثُ يُسَوَّدُ مَلِكًا. فَلا عَجَبَ إِذا فاتَهُمْ — كَما لَمْ يَفُتْنِي — الْمُقابَلَةُ بَيْنَ «الْياهُو» فِي حالَيْهِ: مُتَوَحِّشًا وَمُسْتَأْنِسًا، واكْتِنَاهُ ما اسْتَسَرَّ مِنْ غَرائِزَ تَتَجَلَّى فِي طِباعِهِ أَنِيسًا مُسَوَّدًا، أَكْثَرَ مِمَّا تَتَجَلَّى فِيهِ وَحْشًا مُسْتَعْبَدًا.

ولَوْلَا ما أُتِيحَ لِي مِنْ دِراسَةٍ مُتَعَمِّقٍ خَبِيرٍ لِجمَاعاتِ «الْياهُو» الْمُتَوَحِّشِينَ — مِنْ سُكَّانِ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ — لَما فَطَنْتُ إِلَى ما تَنْطَوِي عَلَيْهِ أَخْلاقُهُمْ مِنْ نُزُوعٍ إِلَى الْكِبْرِياءِ.

فَهُمْ — فِيما رَأَيْتُ — عَلَى الضِّدِّ مِنْ سادَتِهِمُ الْجِيادِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي كَنَفِ الْعَقْلِ، ويَدِينُونَ لِحُكُومَتِهِ بِالْوَلاءِ، وَلَا يُدِلُّونَ بِما أَحْرَزُوا مِنْ حِكْمَةٍ، وَلَا يَفْخَرُونَ بِما أُوتُوا مِنْ فَضْلٍ، أَكْثَرَ مِمّا أَفْخَرُ أَنا بِأَنَّنِي لَمْ أَفْقِدْ ذِراعًا وَلَا ساقًا. وَهَلْ يَفْخَرُ بِهذا عاقِلٌ؟

إِنّ احْتِفاظِي بِالذِّراعِ وَالسَّاقِ مِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لَا تُثِيرُ فِي نَفْسِي شُعُورًا بِالزَّهْوِ وَالْخُيَلاءِ. ولكِنَّ فَقْدَ أَحَدِهِما يُثِيرُ فِي نَفْسِي شُعُورًا بِالتَّعاسَةِ والشَّقاءِ.

(٦) خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

نِداءٌ ورَجاءٌ

فَإِذا رَأَيْتَنِي أَبْدَأُ هذا الْمَعْنَى وَأُعِيدُ، وَأُفِيضُ فِي تَقْرِيرِهِ وَأَسْتَزِيدُ، فَإِنَّما أَسْتَجِيبُ إِلَى أَمَلٍ يُرَاوِدُنِي، ورَغْبَةٍ تُعاوِدُنِي، فِي أَنْ يَفْطِنَ «الْياهُو» إلى دائِهِ، فَيُخَفِّفَ مِنْ غُلَوَائِهِ، وَيُقْلِعَ عَنْ كِبْرِيائِهِ، لَعَلَّهُ يُتِيحُ لَنا، أَنْ نَنْجُوَ بِأَعْصابِنا، فِي قابِلِ أَيَّامِنا، وَنَنْتَقِلَ مِنْ مُجْتَمَعٍ شائِهٍ لا يُطاقُ، إِلَى مُجْتَمَعٍ يَسْمُو بِنا إِلَى أَدْنَى ما يُحْتَمَلُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِرْهاقِ.

وَهُنا أُهِيبُ بِكُلِّ مَنْ أَصابَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ مِنَ الْكِبْرِياءِ: تِلْكَ النَّقِيصَةِ الْحَمْقاءِ، أَنْ يُنَحِّيَ وَجْهَهُ عَنِّي، وَأَلَّا تَدْفَعَهُ الصَّفاقَةُ إلى الدُّنُوِّ مِنِّي، حَتَّى لا تَقْذَى بِرُؤْيَتِهِ عَيْنِي.